مكتبة حراء

روح الحضارة الإسلامية

د. محمد عمارة

دار النيل

روح الحضارة الإسلامية

Copyright © 2012 Dar al-Nile
Copyright © 2012 Işık Yayınları

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـ – ٢٠١٢م

تحرير : نور الدين صواش

تصميم وغلاف : مراد عرباجي

رقم الإيداع : ISBN 978-975-315-483-3

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،
مدينة نصر–القاهرة/جمهورية مصر العربية

تليفون وفاكس : ٠٠٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١

هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢

المحمول : ٠٠٢٠١٠٦٥٥٢٣٠٨٨

www.daralnile.com

روح الحضارة الإسلامية

د. محمد عمارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فهرس

بين يدي السيرة النبوية ١١

مجلة حراء تحتفل بعامها الرابع في القاهرة ٢١

روح الحضارة الإسلامية ٢٩

طاقة الإسلام الاحتوائية للآخر ٤٣

فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي ٥٩

الحرية وحقوق الإنسان ٧٥

خلْق واحد وتعددية في المخلوقات ٨٥

سنة التدرج في الإصلاح ٩٧

المسلم والجمال ١٠٩

وسطية الأمة الإسلامية ١٢٣

الفرد والطبقة والأمة ١٣٥

الفروسية الإسلامية ١٥١

الروح والمادة في الأمن المجتمعي ١٥٧

الموسوعية والموسوعات في الحضارة الإسلامية ١٦٧
الاجتهاد الإسلامي ١٧٥
المنهاج النبوي في المداعبة والمزاح ١٨٥
ماذا تعني بشرية الرسول؟ ٢٠١
النموذج الإسلامي لتحرير المرأة ٢١١
حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب ٢٢٥

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يحرص الإنسان على توكيد ذاته، وإثبات وجوده، من خلال ما يأتيه من أعمال، ويبدعه من إبداعات، والأمم تفعل الشيء نفسه لتؤكد ذاتها، وتؤصل وجودها التاريخي والفكري، وذلك من خلال إنجازها الحضاري الذي يشكل مرآة عاكسة لذاتيتها وأعماقها الجوانية.

فالإنجاز الحضاري هو نتاج فعل درامي بكل المقاييس النقدية، لأنه صراع جدلي بين حرية الإنسان الجوانية أو قل الذاتية وبين العالم البراني بثقله الكتلوي وتحدياته الفيزيائية والترابية، وهذا الصراع تؤججه قوى ميتافيزيقية بما تثيره من أشواق أبدية لتأكيد الذات وللحفاظ عليها من الانشطار أو الذوبان والتلاشي في الذاتيات الأخريات.

فحضارة الإسلام بل روح هذه الحضارة إنما هو ابن الأسى والألم والدم والدموع، ولولا ذلك لما استطاع هذا الروح الحضاري من الوقوف على رجليه على الرغم من كل ما حيك ضده ونزل به من همجيات الشعوب الأخرى، ومن جهالات الأقوام، وعنجهيات الإمبراطوريات. إنه روح صنعته الأحداث، وصاغه الدين والتاريخ، إنه روح عبقري البقاء والديمومة، وعبقري الفعل والتأثير في الأفراد والجماعات المنتمية إليه، إنه يظل جذوة متقدة مهما أراد الأعداء إطفاءها بأفواههم وبكل ما أوتوا من قوة وسلطان.

ففي رحاب هذه الحضارة مفتاح لكل ما يستغلق على المسلم فتحه –

كما سيلمس القارئ بنفسه- وفيه كل ما هو جائع إليه، وظامئ له من المتع المادية والروحية والفكرية. وهذه الحضارة لها من المرونة والانفتاح ما تستطيع معه التكيف مع أصلح ما عند الحضارات السابقة واللاحقة، ولها من السعة والامتداد والاستيعاب ما يؤهلها لمواكبة نهايات الأزمنة، والتمهيد لقيام حضارة عالمية واحدة ترى إصلاح العالم من فساده من أوجب واجباتها.

ومما شخَّصه المؤلف الدكتور محمد عمارة من ملامح هذه الحضارة وسماتها العامة، هو الطابع الموسوعي الذي نجد تجلياته في الأعمال الفكرية الموسوعية للمفكرين الإسلاميين، والوسطية والاعتدالية في مناحي الفكر والحياة من دون إفراط أو تفريط، وكذلك الاعتراف بالآخر المخالف، وإيكاله إلى قناعاته، وعدِّ الخلاف وتعدد وجهات النظر أمرًا مقبولاً ومعترفًا به، لأنه من مستلزمات الطبيعة البشرية، وهو واحد من عوامل تلك الطاقات الاندفاعية التي تشكل تنوع الأدوار التاريخية عبر المسيرة الإنسانية لارتكاز التاريخ، في تحولاته وتغيير اتجاهاته على صراع الأفكار والارادات.

ومع ذلك يظل فشل الأمة عن التعبير عن "ذاتها" بقوة وعمق سببًا في تفجرات مفجعة تعمل على تفكك مفاصل الأمة وتدهورها الحضاري. فالاستمساك بجذور الأمة الروحية هو العاصم من كل ذلك، ومهما وضع من حواجز وأقيم من سدود للحيلولة بين هذه الحضارة والامتداد الروحي في أبناء الحضارات الأخريات لن يكون مجديًا، لأن انتقال بريق الطاقة الحضارية إلى الآخرين –كأي بوارق أخرى- لا يمكن منعها ومنع امتداداتها في الآفاق، فأي تقدم في مسيرة الأمة نحو توكيد الذات هو

تقدم في الوقت نفسه في درجة الإمكانية المعرفية لعوامل بقاء الأمة وبقاء حضارتها.

والدكتور "عمارة" في سياحته الفكرية والاستشرافية في مفاصل الحضارة الإسلامية يسجل الكثير من معالم هذه الحضارة تعقيبًا وتحليلاً، ونحن نشير هنا إلى بعض هذه الموضوعات التي تناولها قلم الدكتور كأمثلة معلمية تؤشر المنهج الاستقصائي الذي تعامل بموجبه مع معالم هذه الحضارة، ومن أمثلة ذلك "التعايش مع الآخر الديني والثقافي"، و"الحرية وحقوق الإنسان"، و"المسلم والجمال"، ولا ينسى "تحرير المرأة" و"المنهج النبوي في الدعابة والمزاح"، وموضوعات أخرى مما يهم المسلم معرفتها والتعرف عليها.

ونحن على ثقة بأن هذا الكتاب سيحظى من المثقفين والقراء ما يستحقه من العناية والاهتمام كما هو شأن كل كتب مفكرنا الكبير.

ولقد ظلَّت "حراء" تؤمن بالحكمة التي تقول: "إنَّ مفتاح الحياة هو الكلمة المبدعة" ففتحت صدرها، وكرَّست صفحاتها لأولئك المبدعين من رجال الفكر والثقافة على اختلاف أوطانهم ونحلهم، ليتحفوها بنتاج أقلامهم، وقرائح عقولهم.

فـ"حراء" تعتقد أنَّ الكلمة الباهتة، والمعنى الشاحب، والفكر المكرور، أعجز من أنْ يهزَّ شجرة الأذهان، أو يحرك أغصان الأرواح، وهذا ما تنأى بنفسها عنه، ولاتريده لها، ولا لأحد غيرها.

وقد غدت كتابات هؤلاء المفكرين على صفحاتها درجات متحركة في سلم الوجود الإنساني والإسلامي على حد سواء، وكان لهم فضل إماطة الحجب عن واعية الزمن لكي تستذكر ما قدمته "حضارة الإسلام"

ليس لأبنائها فحسب بل للعالم كله، لقد استوعبت هذه الحضارة الزمان والمكان والشعوب والأوطان، وكان لعينها العظيمة الواسعة قدرة النفاذ إلى آفاق أبعد من آفاق الزمان والمكان.

ويسر "مكتبة حراء" كما هو ديدنها مع كتّابها أن تقدم للقراء كتاب "روح الحضارة الإسلامية" للمفكر الكبير الأستاذ محمد عمارة، فهذا الكتاب إنما هو باقة فواحة من إبداعات هذا المفكر جمعناها من أعداد "حراء" المتفرقة، ودرجناها بين دفتي هذا الكتاب تحت عنوان واحد هو "روح الحضارة الإسلامية". فهذه المقالات بمجموعها تتناول موضوع هذه الحضارة وتعالجها من جوانبها المختلفة.

و"مكتبة حراء" تأمل بتقديمها لهذا الكتاب أن يجد فيه القراء ما يتوقون إلى معرفته من أسس هذه الحضارة وأعمدتها الفكرية والروحية، والله الموفق..

أديب إبراهيم الدبّاغ

بين يدي السيرة النبوية

"النور الخالد محمد ﷺ... مفخرة الإنسانية"، ذلك الكتاب الذي أبدعه العالم الجليل محمد فتح الله كولن. لقد أبدعه بقلب المحب وعقل المحقق، فجاء على هذا النحو الجليل والجميل، الذي يقود القلوب والعقول إلى عشق سيد الخلق، والاقتداء بصاحب الخُلق العظيم ﷺ.

بين يدي السيرة النبوية

كلما رأيت كتابًا[1] جديدًا في سيرة المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين، صاحب الخلق العظيم، محمد بن عبد الله ﷺ، تواردت على خواطري العديد من الأفكار... منها على سبيل المثال:

إن سير العظماء وتواريخ القادة وأخبار المصلحين والعلماء والمفكرين والفلاسفة عبر كل الحضارات وعلى مر التاريخ، تُكتب -هذه السير- وتختم ولا يعود فيها مجال للمزيد أو الجديد.

لكن سيرة رسول الله ﷺ، قد كانت ولا تزال وستظل ميدانًا مفتوحًا للتأليف والإبداع الذي يكتشف في هذه السيرة العطرة المزيد والجديد... حتى لكأنها نبع متجدد وكتاب مفتوح يكتشف فيه العقل المبدع ما لم يكتشفه الأسلاف... وذلك بقدر ما يتحلى هذا العقل بالوعي والإخلاص والحب والولاء.

حدث ذلك على مرّ تاريخ الإسلام، في الإطار الإسلامي، ومن قِبل نفر من غير المسلمين. فرغم الكم الهائل من الكتب والمجلدات التي كتبت في هذه السيرة العطرة، كانت ولا تزال معطاءة للمزيد من الجديد.

---

[1] لقد كتب هذا المقال بمناسبة صدور الطبعة الثانية لكتاب "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" للأستاذ فتح الله كولن.

إذن، فنحن أمام فرادة و تميز وامتياز، اختصت بها سيرة الرسول ﷺ، وهي فرادة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

كذلك، وجدنا ونجد في كل تواريخ العظماء والقادة والعباقرة والمصلحين تناقصَ أتباعهم ومريديهم وعشاقهم ومحبيهم مع توالي السنين والقرون، بمن في ذلك الرواد الذين تكونت من حول دعواتهم ومبادئهم وسيرهم ديانات وضعية. فأتباع "ماني" (٢١٥-٢٧٦م) وأتباع "زرادشت" (٥٨٣ ق.م) يقتربون الآن من الزوال. وأتباع "بوذا" (٥٦٦-٤٨٦ ق.م) هم الآن أقل بكثير جدًّا مما كانوا عليه في سالف الأزمان.

بل إن هذا القانون قد سرى حتى على أتباع الرسل الذين سبقوا رسولنا ﷺ، على درب النبوات والرسالات. فأتباع موسى عليه السلام -من اليهود- لا يتجاوزون خمسة عشر مليونًا، أبعدت العلمانية أغلبهم عن الروح الديني الذي جاء به كليم الله، ولم يبق لهم من اليهودية إلا العصبية والعنصرية التي لا علاقة لها بما جاء به موسى عليه السلام.

وكذلك الحال مع أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. فالشرق الذي ظل قلب العالم المسيحي لعدة قرون، قد غدا منذ قرون طويلة قلب العالم الإسلامي. وأوروبا التي غدت لقرون عديدة قلب العالم المسيحي، لا يؤمن فيها اليوم بوجود إله سوى أربعة عشر بالمئة من السكان، ولا يذهب إلى كنائسها التي خانت كثير منها نصرانيتها سوى عشر بالمئة من الأوروبيين.

أما الإسلام؛ وأحباب وأتباع رسول الله ﷺ، الذين يحبونه حتى يحبهم الله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران:٣١)، والذين يطيعون الرسول كي تتحقق طاعتهم لله

ﷻ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(النساء:٨٠)، فإنهم الاستثناء الوحيد -عبر التاريخ والديانات- من هذه الظاهرة التي مثلت قانونًا لا يتخلف إلا في عالم نبينا ورسولنا عليه الصلاة والسلام. فأتباعه وعشاقه ومريدوه الذين يتخذونه الأسوة الحسنة والمثال المتسامي هم وحدهم الذين يتزايدون ويتكاثرون، وتباهي بهم الدنيا، كما سيباهي بهم رسولنا يوم القيامة، إن شاء الله!.. وتلك هي الأخرى، ظاهرة فريدة، تحتاج إلى تفسير وتعليل.

وعبر تاريخ دعوات الإصلاح، ومشاريع النهوض، وفلسفات التقدم، والمبادئ التي تركت بصماتها في مسيرة التحرير والتغيير للأمم والشعوب، كان وهج هذه الدعوات والفلسفات والمبادئ يقلّ شيئًا فشيئًا، كلما تغير الواقع المعيش، وتبدلت العادات والتقاليد والأعراف... بل لقد أصاب هذا التراجع حتى الكتب السماوية التي جاءت بها النبوات السابقة، عندما استُحفظ عليها الناس فلم يحفظوها، فنسوا حظًّا مما ذكروا به، وبدلوا الكلم من بعد مواضعه، وكتبوا بأيديهم ما كذبوا، فقالوا هو من عند الله!..

وهنا -أيضًا- نجد أن دعوة رسولنا ﷺ، بدءً من الوحي المعصوم والمحفوظ حفظًا إلهيًّا إلى السنة المطهرة التي مثلت البيان النبوى للبلاغ القرآني... نجد هذه الدعوة استثناء فريدًا من هذا القانون الذي سرى على سائر الدعوات والفلسفات والمبادئ والنظريات والكتب. فهذه الدعوة -في وحيها الإلهي- كتاب مفتوح لا تنقضي عجائبه، فيه نبأ الأولين وخبر الآخرين. والكليات والإشارات والجوامع التي تتكشف وتتجلى -بمرور الأزمان وارتقاء العقول وتقدم العلوم- آياتٍ ومعارفَ وسننًا كونية واجتماعية مبثوثةً فى الأنفس والآفاق، حتى لكأنها المعجزات المتواليات

تترى من هذا الإعجاز الإلهي والنبوي الذي جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام.. تُديم التحدي للجاحدين، وتضاعف الطمأنينة لقلوب المؤمنين. وهذا التوهج المتزايد والمتعاظم -هو الآخر- ظاهرة فريدة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

فما هو تفسير هذه الظاهرة الفريدة التي تميزت وامتازت بها سيرة الرسول الكريم ﷺ، ودعوته على سائر السير والدعوات؟

إن الإجابة المفصَّلة على هذا السؤال تحتاج -ولا شك- إلى مجال أوسع بكثير من هذا الحيز الحاكم الذي نحن فيه. لكننا نستطيع -في هذا المقام- أن نوجز إشارات إلى عدد من المعالم التي تمثل رؤوس أقلام للإجابة على هذا السؤال، وذلك من مثل:

إن سير العظماء والقادة والمصلحين تكتب وتختم وتكتمل فصولها وتتم وقائعها، لأنها سير بشر، يعيشون في نطاق عالم الشهادة لا يتعدونه، ذلك العالم الذي تدرك العقولُ الإنسانية كنه حقائقه، ومآلات دعوات الإصلاح البشرية والفلسفات العقلية التي أبدعها وطبقها هؤلاء القادة والعظماء؛ بينما سيرة رسولنا ﷺ -وهو بشر حرص القرآن الكريم على التأكيد على بشريته- هي سيرة "بشر-يوحى إليه".

ففي سيرته ودعوته وسنته وشمائله ارتبطت البشرية بالنبوة، والعادة بالإعجاز الخارق للعادة، والاجتهاد بالعصمة، والأرض بالسماء، والنسبي بالمطلق، والعلم الجزئي بالعلم المحيط، وعالم الشهادة بعالم الغيب، والزمني بالخلود، فغدتْ سيرةُ البشرِ الرسول -هنا- حاملة من المطلق الخالد ما يجعلها دائمة العطاء، ومستعصية على الختم والانتهاء وطي الصفحات وجفاف الأقلام.

كذلك، تميزت سيرة رسولنا الكريم ﷺ، حتى على سير الخالين من الرسل والأنبياء، عليهم جميعًا صلوات الله وتسليماته، بأنها سيرة النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، فاستمر عطاؤها، ومن ثم ظل كتابها مفتوحًا دائمًا وأبدًا لاكتشاف السنن والقوانين والدروس والعبر والعظات؛ بينما كانت رسالات الخالين من الرسل، وكذلك معجزاتهم، خاصة بقوم بعينهم، وزمن بعينه، وحجة على من شهد تلك المعجزات المادية التي أدهشت العقول.

على حين كانت معجزة القرآن الكريم مستنفرة للعقل دائمًا وأبدًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها... وكانت السنة النبوية المطهرة بيانًا نبويًّا لهذا الإعجاز القرآني الخالد، الأمر الذي جعلها -مع السيرة النبوية- كتابًا مفتوحًا على ألوان لا تحصر من الإعجاز العلمي والقيمي والإصلاحي، الصانع للإنسان السوي وللمجتمع السوي، عبر الزمان والمكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إنها سيرة الرسول الخاتم، صاحب الشريعة الخالدة... إمام أولي العزم من الرسل... والمتفرد بالرسالة العالمية... وبإقامة الدولة وصنع الحضارة، مع تبليغ الدعوة الدينية.

فدينه قد تفرد بتأسيس الدولة، وتوحيد الأمة، وتنظيم الاجتماع، والتحريض على بناء الحضارة. ودولته قد غدت الحارس للدين، الذي تسوس به اجتماعها المدني... كما ضمن خلودُ هذا الدين لحضارته خلودًا تفردت به عن سائر الحضارات.

ولهذا الكمال والاكتمال الجامع -في الدعوة الإسلامية- بين الدين والدنيا والأرض والسماء والاجتهاد والعصمة، والدين والدولة، والدنيا والآخرة، والفرد والأمة، والتكاليف الفردية والاجتماعية، والعلوم الشرعية

والمدنية، والعقل والنقل والتجربة والوجدان، والتصديق لما سبق من الكتب والرسالات مع الهيمنة والتصحيح والإكمال لهذا الذي سبق من الكتب والرسالات... لهذا الكمال والاكتمال في الدعوة الإسلامية، فلقد تميزت سيرة رسول هذه الدعوة، عليه الصلاة والسلام، التي هي سيرة "البشر-الرسول"، بأنها سيرة الإنسان الكامل، بكل ما في هذا الكمال والاكتمال الإنساني من أبعاد تجعل ختم الكتابة لسيرته هذه أمرًا عصيًّا على التحقيق...

فهو الذي وجده ربه فقيرًا فأغناه... ومع ذلك كان انحيازه إلى بساطة عيش الفقراء وحياة المساكين طوعًا وشوقًا واختيارًا.

وهو الذي تحمّل-صابرًا ومصابرًا- كل إيذاءات الشرك والنفاق، ومع ذلك بلغت به الرحمة والرأفة إلى الحد الذى جعله رؤوفًا رحيمًا بالذين آذوه وآذوا صحابته، فأطلق لهم عنان الحرية فى لحظات انتصاره الأكبر... ودعا لهم بالهداية في لحظات الذروة من الإيذاء.. رجاء أن يخرج الله من أصلاب الغلظة من يرق قلبه لنعمة الإيمان بالإسلام، فيهتدي بسراجه المنير.

ومع أنه قد حمل هموم إقامة الدين، وتأسيس الدولة، وصلاح الدنيا، وعبء تغيير العالم... فلقد تكاملت فيه كل صفات الإنسان الكامل؛ فكان بشوشًا يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ويسامر أصحابه، ويداعب زواره، ويخدم أهله، ويقدم اليسر على العسر، يحب أن تؤتى رخص الدين كما يحب أن تؤتى عزائمه، ويحرص على طلب الجمال فى محيطه، ليستمتع به ويعلم الناس الاستمتاع بنعمته، حتى ليجعل من صلاة الاستسقاء مناسبة يدعو الله فيها: "اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها"، ومن دعاء السفر مناسبة يستعيذ فيها بالله من كآبة المنظر، ومن مسجد النبوة مسرحًا للفنون ومتعة

الترفيه الحلال... ومن الأعياد والأعراس مناسبات للزينة والفرحة واللهو الحلال الذي يجدد الملكات والطاقات عند الإنسان.

حتى ليروى أنه "لم يكن ريح أطيب من ريحه، وكأن عرقه اللؤلؤة!.."

وهو -مع ذلك- الذى يقف بين يدي مولاه -في الصلاة- حتى تتورم قدماه... ويجعل من الرفق بالإنسان والحيوان والطبيعة مناسك يتقرب بها الإنسان إلى الله.

وهو الذي يغضب لما يغضب الله... وإذا اضطر إلى الجهاد القتالي -دفاعًا عن الدين والوطن- كان، إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق، أقرب المقاتلين إلى الأعداء، حتى ليحتمي به الفرسان فى ساحة القتال.

فهو الإنسان الكامل، والرسول الخاتم، والبشر الذي يوحى إليه، والمجتهد المعصوم الذي اتصلت -في سيرته- الأرض بالسماء، وامتزج فيها النسبي بالإطلاق والخلود... فهو ﷺ، روح في جسد، ككل البشر، يأكل الطعام ويمشى في الأسواق... لكن روحه بعبارة الإمام محمد عبده (١٢٦٥-١٣٢٣هـ/١٨٤٩-١٩٠٥م) "ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليه سطوة روحانية. وهو بمنزلة العقل من الإنسان. إنه إمام أولى العزم من الرسل الذين ميزهم الله بالفطرة السليمة، وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمَين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها".

نعم، لهذا التميز والامتياز الذي جعل من الرسول ﷺ "نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب... وعقل الإنسانية والبشرية"، ولتميز رسالته بالإتمام والإكمال للدين والأخلاق، وبالعالمية، وبالخلود، وبالدولة والاجتماع والحضارة مع الدين...

لكل ذلك تميزت سيرته ﷺ، عن كل سير القادة والمصلحين والعظماء والانبياء والمرسلين... بل وشاء الله أن تكون سيرته وتاريخ دعوته هو التاريخ الوحيد المعروف والموثق دون سير الأنبياء وتواريخ الرسالات التي لم يبق من سيرها إلا ما جاء في القرآن الكريم. فكانت سيرته ﷺ، الخبر الصادق حتى في سير الخالين من الرسل، عليهم جميعًا أزكى الصلوات والتسليمات.

بهذه الأفكار والخواطر أستقبل -دائمًا وأبدًا- كل إبداع جديد في سيرة المصطفى ﷺ. وبها أقدم بهذه الطبعة الجديدة لهذا العمل الفريد في سيرة المصطفى ﷺ، النور الخالد... ومفخرة الإنسانية، ذلك الكتاب الذي أبدعه العالم الجليل محمد فتح الله كولن. لقد أبدعه بقلب المحب وعقل المحقق، فجاء على هذا النحو الجليل والجميل، الذي يقود القلوب والعقول إلى عشق سيد الخلق، والاقتداء بصاحب الخلق العظيم.

أمدَّ الله عالمنا الجليل بمدد من عنده، ونفع به وبعلمه، وجعل هذا العمل الجليل في ميزان حسناته يوم الدين... إنه ﷻ أفضل مسؤول وأكرم مجيب.

مجلة حراء

تحتفل بعامها الرابع في القاهرة

- مجلة بلغة القرآن
- رسالة الأستاذ فتح الله كولن

"إن شعوب العالم في حاجة إلينا نحن معاشر المسلمين. إذا نحن مثلنا ديننا وحضارتنا حق التمثيل. وإنه لا عذر لنا اليوم في عدم التواصل مع الآخر وعرض نموذجنا الإسلامي الراقي في أسواق العالم الثقافية. بيد أن أولى الخطوات أن نتواصل نحن فيما بيننا، وهذا هو دور "حراء" في تجديد الأخوة بين العرب والأتراك وفي إحياء لغة القرآن الكريم وروحه وثقافته".

مجلة حراء
تحتفل بعامها الرابع في القاهرة

عندما يسمع المرء كلمة "حراء "يقفز إلى ذهنه وعقله وقلبه ذلك الغار المكي الذي نزل فيه الروح الأمين على قلب الصادق الأمين بأولى آيات القرآن الكريم فكانت همزة الوصل مع تاريخ النبوات والرسالات بعد فترة من الرسل والرسالات.

مجلة بلغة القرآن

ومنذ ثلاث سنوات[1] حملت ذاتَ الاسم "حراء" أولُ مجلة تركية ناطقة بالعربية "لغة القران الكريم" لتصل تركيا الجديدة بتاريخها الإسلامي الجديد بعد قطيعة عاشها الأتراك إزاء هويتهم وتاريخهم وجوارهم وإزاء العربية وحرفها الذي هو من فنون الجمال.

وفي القاهرة "قلب العروبة والإسلام" أقيم في ٢٠٠٨/١١/١٢ احتفال ثقافي لمجلة حراء التي ازدانت صفحاتها منذ صدورها بأقلام العلماء والمفكرين الذين مثلو أغلب بقاع العالم الإسلامي حتى لقد أحيت بذلك معنى الهوية الإسلامية الجامعة للأمة ولواء الإسلام.

---

[1] صدر أول عدد لمجلة حراء سنة ٢٠٠٥

وإلى حضور هذا الاحتفال وجه الراعي لإصدار هذه المجلة الداعية التركي العلامة الأستاذ "فتح الله كولن" رسالة بليغة وجامعة جاءت قطعة ذهبية من أدب الرسائل وعيون المراسلات.

لقد تحدث فيها بتواضع العلماء العظام عن مصر "بلد الحضارة الشامخة والتاريخ المجيد"، بلد الكيل الكريم والخير العميم وموطن خزائن العلم والأدب وكنانة الإسلام وحصنه المنيع، صاحبة الدور القيادي الذي أداه رجالها قديما وحديثا في نصرة الإسلام ونشره في كثير من بقاع الأرض، وفي نهضة التجديد في مجال الإصلاح الديني، والريادة في إحياء اللغة العربية والشعر والأدب، والسبق في النجاح الساحر بمجالات النشر والصحافة والإعلام.

هكذا تحدث العلامة "فتح الله كولن" عن مصر في رسالته إلى المحتفلين بمجلة "حراء". ثم تحدث إلى علماء مصر عن هذه المجلة فقال: "لقد جئناكم بمجلتنا الفتية "حراء" نضعها بين أيديكم، عساها تلقى الاحتضان الحنون بصدركم والمدد الكريم من أقلامكم، فهي وليدة صغيرة رجعناها إلى أمها كي تقر عينها ولا تحزن، فعسى الله أن يلقي عليها محبة منه فيكفلها منكم كتاب".

ثم تحدث الداعية الكبير عن ضرورة التواصل الفكري بين الأتراك والمصريين فقال: "إننا ونحن بين أيديكم نصل رحمنا، ونجدد عهدنا، ونحيي أخوتنا، فدماؤنا واحدة وحديثنا واحد وتاريخنا واحد، ومن ثم فأشواقنا واحدة، وليس ثمة رابط أوثق في تجديد الأخوة التي بيننا من رابط الكلمة المؤمنة التي تفتح القلوب، وتحيي، النفوس وتجدد صلتها بالله".

ثم تحدث -حفظه الله- عن فريضة التواصل العلمي بين أبناء الأمة

لتبادل الخبرات وتقريب الرؤى فيما يتعلق بتجديد الدين وعلاج جراح الأمة ومحاربة اليأس وتوجيه الجيل إلى الاسترواح من روح الله اعتمادًا على المنهج القرآني القائم على الوسطية والاعتدال.

ثم ختم رسالته بالإشارة إلى دور العلماء المسلمين إزاء الإنسانية: "فشعوب العالم في حاجة إلينا إذا نحن مثلنا ديننا وحضارتنا حق التمثيل. وإنه لا عذر لنا اليوم في عدم التواصل مع الآخر وعرض نموذجنا الإسلامي في أسواق العالم الثقافية. بيد أن أولى الخطوات أن نتواصل نحن فيما بيننا، وهذا هو دور "حراء" في تجديد الأخوة بين العرب والأتراك وفي إحياء لغة القرآن الكريم وروحه وثقافته".

هكذا كان الاحتفال بمجلة "حراء" مناسبة طيبة لسماع هذه الرسالة من العلامة "فتح الله كولن" التي جاءت نموذجًا من عيون الرسائل التي تستمد جمالها من بلاغة القرآن الكريم.

وفيما يلي ننشر نص خطاب الأستاذ فتح الله كولن إلى الحاضرين في ملتقى حراء بالقاهرة.

رسالة الأستاذ فتح الله كولن

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه تعالى نستهدي ونستعين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتمِ الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد؛

حَضَرَاتِ السادة والسيدات، رِجَالَ مِصْرَ الكرام، ونساءَها الصالحات...

أيها العلماءُ والمفكرون، والأدباءُ والمثقفون، ورجالَ الصحافةِ والإعلام...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنه ليسعدني اليومَ -سادتي- أن يكون هذا الوفد التركي من إخوتي بين أيدي نخبة من علماءِ مِصرَ ومفكريها الكبار. ولولا ظروفٌ قاهرةٌ لكنتُ اليومَ معهم، فما أَسْعَدَ أن يَحُلَّ المرءُ ببلد الحضارة الشامخة والتاريخ المجيد.

أيها السادة المحترمون! لقد قَدِمْنَا إليكم لعرض مجلتِنا "حِرَاء" على أنظار حضراتكم مستنصحين ومسترشدين. فهذا مجالٌ لكم فيه فضل السبق والريادة والتأسيس، ونحن لكم فيه تَبَعٌ. قدمنا إليكم في عهد طالت به السنوات الشِّدَاد، فلا زرعٌ ولا ضَرْع، وأكلت بَقَرَاتُهُ العِجَافُ سِمَانَهَا، حتى حللنا بمصر بلد الكيل الكريم، والخير العميم، وموطن خزائن العلم والأدب. ورغم أننا جئنا ببضاعةٍ مُزْجَاةٍ من الثقافة والفكر فإننا نرجو أن نَمِيرَ أهلَنا، ونحفظَ مجلتَنا، ونزدادَ كَيْلَ بعير.

لقد قدمنا إلى مِصْرَ كِنَانَةِ الإسلام وحِصْنِهِ المنيع، ذاكرين الدور القيادي الذي أداه رجالُها -قديمًا وحديثًا- في نصرة الإسلام، ونشره في كثير من بقاع الأرض، وكذا ما حققوه -بعد ذلك- من نهضة تجديدية في مجال الإصلاح الديني، وريادةٍ في إحياء اللغة العربية والشعر والأدب. وما كان لهم من سبق باهر، ونجاح ساحر، في مجال النشر والصحافة والإعلام. إننا نشعر الآن ونحن بين أيديكم -أحبتَنا الكرام- أننا نَصِلُ رَحِمَنَا، ونجدد عهدَنا، ونُحْيِي أُخُوَّتَنَا. فليس يخفَى أن دماءَنا واحدة، وأن دينَنا واحد، وتاريخَنا واحد، فلا غَرْوَ أن تكون أشواقُنا واحدة. وليس ثَمَّةَ رابطٌ أَوْثَقُ في تجديد الأخوة، وصِلَةِ الرحم الروحية التي بيننا من رابط الكلمة، الكلمة المؤمنة المتوضئة التي تفتح مغاليق القلوب، وتُحْيِي

مَوَاتَ النفوس، وتجدد صلتها بالله.

أجل؛ جئناكم بمجلتنا الفَتِيَّة "حراء"، نضعها اليومَ بين أيديكم عساها تَلْقَى الاحتضان الحنون بصدركم، والمدَدَ الكريم من أقلامكم. فإنما هي وليدة صغيرة، رَجَعْنَاهَا إلى أمها كي تَقَرَّ عينُها ولا تحزن. فعسى اللهُ أن يُلْقِيَ عليها محبةً منه؛ فَيَكْفُلُهَا منكم كُتَّابٌ، ومفكرون، وعلماء، وأدباء، ونكون نحن على أبوابها وعَتَبَاتِهَا في خدمتكم. وأي خدمة أفضل من خدمة أهل العلم الذين حَمَّلَهُمُ اللهُ أمانةَ رسالتِه، ورايةَ دعوتِه، وتجديدَ دينِه.

هذا، وإننا نحسب -سادتي- أن الإبَّانَ قد حان، للتفكير الجدي في تجديد قنوات التواصل العلمي والثقافي، بين أبناء الأمة الواحدة علمائِها ومفكريها لتبادل وجهات النظر، وتعاطي ثمرات التجارب، وتقريب الرؤى والتصورات، فيما يتعلق بأمر تجديد الدين، وعلاجِ جراحِ الأمة الثَّخِينَةِ، ومحاربة اليأس والقُنُوطِ، وتوجيه الجيل إلى ظلال الاِسْتِرْوَاحِ من رَوْحِ الله، وتجديد الثقة به تعالى واليقين. ونحسب أن نشر الكلمة الطيبة، المحملة بالعلم النافع، والأخلاق الرفيعة، والسلوك الروحي الصافي، وإيصال مواردها العذبة إلى جميع الناس، اعتمادا على المنهاج القرآني السليم، القائم على الوسطية والاعتدال، ونشر المحبة والسلام لكفيل بالنهوض بهذا الهدف النبيل والمقصد الجليل.

أيها السادة الكرام! إن شعوب العالم لفي حاجة إلينا نحن معشرَ المسلمين، إذا نحن مَثَّلْنَا دينَنا وحضارتَنا حَقَّ التمثيل. وإنه لا عذر لنا اليوم في عدم التواصل الإيجابي مع الآخر، وعرض نموذجنا الإسلامي الراقي، في أسواق العالم الثقافية. بَيْدَ أن أولى الخطوات أن نتواصل فيما

بيننا نحن أبناء الأمة الواحدة أولا. وعسى أن تكون مجلة "حراء" قناةَ اتصالٍ علمي، تجدد الأُخُوَّةَ بين العرب والأتراك، وتُسْهِمُ في إحياء لغة القرآن وروحه وثقافته.

سادتَنا الكرام! هذه مجلتنا ممدودة إليكم، تنشر صفحاتِها تحت مِدَادِ أقلامِكم، عساها ترتوي من نِيلِ أفكاركم، وفيضِ أرواحكم. فبكم ننافس إذا تنافست الصحف، وبكم نفخر إذا تفاخرت المجلات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

روح الحضارة الإسلامية

- بناء الحضارة والثقافة
- التوازن والانسجام
- ما أسباب التخلف؟
- حجم المشكلة
- ما هو الحل؟

إن الدعوة الدينية في الإسلام لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبِّرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء، وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة والمجتمع والكون.

روح الحضارة الإسلامية

لقد كانت الصناعة الثقيلة التي بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتها، منذ المرحلة المكية، هي صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذي تدين بدين الإسلام.

وكانت "دار الأرقم بن أبي الأرقم" في مرحلة سِرّية الدعوة الإسلامية، أي منذ فجر تلك الدعوة هي أولى المؤسسات التربوية التي أقامها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة، وتغيير الواقع وتطبيق القانون وبلورة العلاقات الدولية كان الفتح الإسلامي للقلوب والعقول بهدي القرآن الكريم. ذلك الذي أصبح خُلق سلوك وممارسات، وسجية للحياة التي يحياها المسلمون، بل إن أولى المدن التي فتحها المسلمون قبل الهجرة النبوية وقبل الدولة الإسلامية -وهي المدينة المنورة- قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم.

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية -بالتربية- للإنسان، جاءت كل الإنجازات والفتوحات، في ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها، فكانت تجسيدًا لهذا الذي سبق وتم إنجازه في نفس الإنسان.. جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام، التي سبق وصاغت نفوس وعقول

وقلوب الذين اهتدوا بهدْي الإسلام.

إن الدعوة الدينية في الإسلام لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبِّرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء.. وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة والمجتمع والكون، فتوحدت في نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة، وائتلفت فيها وتوازنت علاقات الفرد بالمجموع، والخاص بالعام؛ فتدينت الدنيا، مع بقائها دنيا، عندما صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التي ائتلفت فيها وتوازنت آيات الله في الوحي السماوي بآياته في الأنفس والآفاق.

إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردي والخلاص الذاتي، وإنما لا بد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة ووطن واجتماع ومجتمع، وفروض اجتماعية، يتوجه الخطاب فيها والتكليف بها للأمة. وهذه الفروض الاجتماعية أهم وآكد من الفروض الفردية، بدليل أن إثم التخلف عن الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء.

وفي دين الإسلام، اقترنت الهجرة في سبيل الله بتأسيس الدولة، وإقامة المجتمع، وتطبيق القانون، وإقامة نسيج اجتماعي بين الرعية يحقق المؤاخاة، لا في الحقوق الدينية المجردة فقط، وإنما في أمور المعاش الدنيوية أيضًا؛ بل لقد امتد هذا النسيج بمعايير المواطنة، وحق الاختلاف حتى في الدين، إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين.

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية، تخلص فيها وبها الذات، بمعزل عن الحياة والناس.. بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هي الجهاد، الذي هو

فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع.

لقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثرًا تكوينيًا تربويًّا في شخصية الفرد المسلم، أصبح عاملاً نفسانيًّا، حقق ائتلاف العناصر الفردية في المجتمع الإسلامي، الطبيعي منها والشرعي، المدني منها والديني، العقلي منها والنقلي، المادي منها والمجرد.. فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية، أبدعها الإنسان الذي صاغته الدعوة الإسلامية. وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ فالرسالات الدينية التي سبقت رسالة الإسلام الخاتمة، إما أنها تزامنت مع حضارات غير متدينة، فتعايشت معها، دون أن تغيرها وتصبغها بصبغتها؛ بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين، وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت في أزمنة الفترة التي خلت من رسالات الدين.

بينما تميز الإسلام بكونه دينًا فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعًا إنسانيًّا، وألّف في نفس الإنسان -بالمنهاج التربوي الشامل- ذلك الائتلاف المتوازن، الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين. لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدني لهذا الإنسان -أي الحضارة الإسلامية- ثمرة مجسدة لهذا الذي أحدثه الدين في نفس هذا الإنسان.. فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذي نشكو منه، والذي حدث منذ قرون، والذي تطبّ لدائه كل دعوات وحركات الإصلاح في أمة الإسلام.

وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضاري،

وازدهارهم الثقافي.. فما سبب التخلف الذي أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو، على حاله الذي كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم في الحياة الإسلامية؟!

إن السبب هو غيبة "الروح" (روح الدين الإسلامي) عن الحضارة (الحضارة الإسلامية)، هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين.. هذه الروح التي جعلت الحضارة إسلامية، بل والتي فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام.

لقد جلس الحسن البصري إلى واعظ من الوعاظ، فلم يتأثر قلبه بموعظته، فسأل الحسنُ الواعظ: "يا أخي، أبقلبك مرض أم بقلبي؟". إن انقطاع الاتصال، لغيبة الروح، هو سبب المرض والمأزق الحضاري، الذي تطب له وتبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح.

فما هذه الروح التي جعلت الإسلام -دون الديانات الأخرى- يصنع حضارة وثقافة، ولايقف عند مجرد الدين؟! وأين موطن الخلل الذي عطل الفعل الإسلامي في الحضارة والثقافة؛ فتراجعت الحضارة الإسلامية، وضمرت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام "الدين" كما هو، وبقاء الإيمان به والاستمساك بعراه؟!

لقد عرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن الأمور التالية:

بناء الحضارة والثقافة

تميز الإسلام (الدين) بإفراز الحضارة، وبناء الثقافة: "فإذا كان الإسلام، باعتباره دينًا، يشترك مع غيره من الأديان في القضايا التي هي موضوع

الديانات عامة، فإن للإسلام نواحي ينفرد بها عن تلك الديانات، التي اشترك معها في القضايا الدينية بصفة عامة، إذ تكون له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى.. فهذه التي نسميها الحضارة الإسلامية، أو تلك التي نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هي سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية، كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها. فلم يقف الإسلام عند التعايش مع العلم، وإنما أصبح كل موضوع علمي ذا صلة بالعقيدة الدينية، وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما وراءها ارتباط التفاعل والتمازج. ونشأ من ذلك اتجاه نحو الحياة والسلوك فيها، يدفع به العامل الديني الاعتقادي في كل وجه من وجوهه، وسبيل من سبله؛ فصار الداعي الديني يتجلى فيما يصنع العالم، وما ينتج الأديب، وما يصوغ صاحب الفن. وصارت المعرفة العلمية سندًا لكلام المتكلم، وفقه الفقيه، وتصوف الصوفي، على الصورة التي ربطت عناصر المعرفة، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية، مع الحقائق الاعتقادية؛ يتجانس فيها العلم مع الدين، ويتساند العقلي والنقلي. لقد تكوّن المجتمع الإسلامي بإثر دعوة دينية، إنه مجتمع ديني بالمعنى الأخص، كان الدين فيه العامل الأول المباشر. ومن دعوة الدين، والإيمان بها، اكتسب الشعب الذي استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان خلالاً نفسية جديدة. لم يستفد علمًا ولا صناعة ولا قوة مادية، ولكن الذين اكتسبه من الخلال طوّع العلم والصناعة والقوة المادية؛ فكانت المدارك الدينية وحدها هي التي فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار، والمعرفة والإيمان. فالحقيقة الاعتقادية

الإلهية، هي الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية. وإنسان هذه الحضارة، بالدين فكّر، وبالدين تحضّر، وبالدين أنتج آثار حضارته، وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته. وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة في نفسه بالدين، وعوامل الدين فعالة في مظاهر الحضارة".

التوازن والانسجام

كذلك امتازت هذه الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام؛ لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية: "فكل الحقائق، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها، هي في متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المدرّجة، المستند بعضها إلى بعض، في غير تنافر ولا تدابر ولا تناشز. فالمدركات الغريزية، وراءها المدركات الحسية. ثم المدركات الحسية، وراءها المدركات العقلية. ثم المدركات العقلية، تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية، الآتية من طريق الوحي، وإلى التسليم بها، والإذعان لها. وتبقى هذه المدركات كذلك متعاونة متساندة، لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطريق، يمكن أن يتصل به طريق آخر منها، حتى تنتهي إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة، وهو طريق الوحي. فعقل الإنسان وعقيدته، وحسه المادي، وعواطفه الغريزية، كلها متجانسة متعاونة، لا يخشى بعضها بعضا، ولا يقطع أحد سبيل الآخر. لقد كانت الحضارة

الإسلامية من أثر إنسان اكتسب وضعًا منسجمًا في ذاته، آمنا إلى نفسه، فصنع على مثال نفسه حضارة أكسبها مما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات".

ما أسباب التخلف؟

لكن ما الذي حدث حتى تخلفت الحضارة الإسلامية وتهلهلت ثقافتها، مع بقاء الإسلام -الذي صنعهما وحقق لهما الازدهار الذي دام لعدة قرون، كانا فيه منارة للعالمين- على ما هو عليه؟! "لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام، وإنما كان الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية. وكانتا تتطلعان إلى الإسلام بذاته، تحنان إليه، وترجوان شفاءهما عنده. وكان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامي، في حضارته وثقافته، ليس إلا أمرًا آتيًا من انحراف عن الأصل، وانقلاب في الوضع، وانفلات عن العامل التربوي الأصلي الذي لزم الأصول، وأحكم الأوضاع؛ فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها، واضطربت أوتادها..".

فالخلل لم يحدث في ذات الإسلام؛ وإنما في توقف عقيدة الإسلام عن أن تكون روح الحضارة، وانكماش الإرادة الاعتقادية البناءة للحضارة، وغربة الحضاري عن الديني، وتفكيك الدين عن الدنيا: "وإن تبيّن الناحية التي أصابتها العلة من العقيدة، هو الذي يكشف عن الأسباب التي قضت بضعف الحضارة وتهلهلها. إن الذي حدث في العقيدة الدينية، وقضى بتضعضع الحضارة، إنما هو انكماش صدّها عن أن تخلع من روحها على الحضارة، فأصبحت الحضارة خائرة جامدة، لا تتقدم. وما كان ذلك

الانكماش إلا أثرًا من آثار الضعف، الذي أصاب العقيدة في جوهرها. إن الإرادة الاعتقادية البناءة هي التي خارت وضعفت؛ فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه، فصارت هي في واد والعقيدة الدينية في واد. وبقي المسلم وفيًّا لعقيدته الدينية، غيورًا عليها، من جهة، متقبلاً لحياته العملية، مطمئنًّا إلى واقعها من جهة أخرى. حتى أصبح المبدأ النظري والواقع العملي عنده متباينين، وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار أن الدين خيرٌ غير واقع، والدنيا شر واقع، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه دِينًا لا يؤثر فيه إلا لمامًا، ويعيش في دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين. ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيات أجنبية عنه، فيها العلم، وفيها الصناعة، وفيها القوة، وفيها الحكمة؛ فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية، كما تناول المدنيات التي احتك بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها جامدًا، واعتبرها من جملة صور الحياة التي كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين..".

ذلك هو موطن الخلل الذي كان ابن خلدون من أفضل من أدركه، وحلله.. "لقد حلل ابن خلدون المشكلة تحليلاً دقيقًا، عندما جعل شؤون السياسة والعمران والصناعة والعلم في الدولة الإسلامية، تبعًا لشأن الدين. وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية أصلاً وأساسًا لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة، وركود العمران -في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة- وانتقاص الصنائع، وتلاشى ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلاً ذلك كله راجعًا إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التي هي أساس العمران

الناشئ به، والدولة القائمة عليه، أعني العقيدة الدينية، فردّ ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد تكوّنًا إيمانيًا، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته، ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكرية. وإذا كان الناس يكتفون بأن يمثلوا ما بدا في حياة المجتمع الإسلامي وحضارته من إخلال، بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق، وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها. فانقلاب الخلافة إلى ملك ليس العلة، وإنما هو عَرض لعلة تغيّر الوازع الديني إلى مقاصد التغلّب والقهر، والتقلّب في الشهوات والملاذ، وحلول عصبية الدولة محل عصبية الدين. لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأوضح روحها، وهو العقيدة الدينية".

حجم المشكلة

وإذا كانت هذه هي المشكلة، فما هو حجمها؟ وما هو عمرها؟ إن حجم هذه المشكلة ليس بالهين، وعمرها ليس بالقصير. "وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعت وتخلخلت، وأن الثقافة قد ذوتْ وانكمشت واصفرت، وأوشكت أن تصير حطامًا، فإن ذلك ليس وليد الأمس، ولا أمسه. ولكنه الأدواء التي استفحلت في القرون الأخيرة، حتى أعضلت، وعز دواؤها، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع، الذي ضج قرننا الحاضر منه بالشكوى..".

ما هو الحل؟

وأخيرًا وبعد تحديد روح الحضارة الإسلامية، وتشخيص موطن الخلل

الذي أصاب حضارتنا وثقافتنا؛ فما هو الحل الحقيقي لهذه المشكلة؟ والمخرج من هذا المأزق الذي يأخذ بخناق الأمة؟

إن الحل هو في العودة إلى الروح التي صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة. إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمستقلة. وهذا هو المعنى الحقيقي لمقولة: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. "فلولا التكوّن الفردي المكّي، والتكوّن الاجتماعي المدني، لما كانت آثار الحضارة التي تبدت في عواصم الإسلام. فإذا كان الناس اليوم يحنّون إلى عهود ذهبية، ازدهرت بها تلك العواصم، ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها، فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولّد تلك العصور الذهبية، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي، الذي كوّن الفرد قبل أن يكوّن المجتمع، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألّفت كيانها".

أما إذا وقفنا عند "استقلال العَلَم والنشيد"، دون حقيقة "الاستقلال الحضاري"، الذي هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه. "لقد خرج العالم الإسلامي من تحت حكم الغير، واسترجع سيادته الذاتية، لكن هل هو مستطيع أن يعاود حضارته، ليضطلع بأعبائها من جديد، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية، التي انبثقت عنها الصورة الماضية التي عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟ إن نهضة اليابان ليست بوذية، ولا نهضة الصين نهضة كونفوشية، ولا نهضة اليونان نهضة بيزنطية، ولا

أفلاطونية، ولا أرسطوطاليسية، بل ولا هي يونانية على الحقيقة بأي حال من الأحوال. فهل سيكون شأن الإسلام مقصورًا على هذا الوضع؟ أو أن حضارة إسلامية الروح، وثقافة إسلامية الطابع، ستبدوان من بين ذلك القدر المشترك المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية، الناهضة المستقلة؟ إن روح تلك الحضارة هي الموقع الرئيسي للمشكلة".

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التي حار ويحار فيها المصلحون، روح الحضارة الإسلامية، التي صنعت وميزت الحضارة والثقافة في عصور النشأة والازدهار، وموطن الخلل الذي جعل الحضارة تتراجع، والثقافة تتهلهل. والحل والمخرج من هذا المأزق الحضاري الذي تعيشه أمة الإسلام.

طاقة الإسلام الاحتوائية للآخر

- التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية
- في الخلافة الراشدة
- في التاريخ الإسلامي
- وشهد شاهد من أهلها

الإسلام هو الجامع والوارث لكل مواريث النبوات، فلقد تفرد بالسماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

طاقة الإسلام الاحتوائية للآخر

إن السماحة التي تعني المساهلة واللين في المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء.. إن هذه السماحة في النسق الإسلامي ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغةَ نظرية تأملية ومجردة؛ كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية يمنحها حاكم ويمنعها آخر. وإنما هي دين مقدَّس، ووحي إلهي، وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي، وتجسيد وتطبيق لهذا الدين في دولة النبوة وفي دولة الخلافة الراشدة، وفي التاريخ الحضاريّ للشرق الإسلامي منذ ما قبل أربعة عشر قرنًا، وحتى هذه اللحظات، بل لأن هذه السماحة هي ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة، فإنها ستظل منهاجًا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها.

التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس السماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود. ففي هذا الوجود هناك "حقّ" هو الله ﷻ، و"خلْق" يشمل جميع عوالم المخلوقات. هناك واجب الوجود، وهناك الوجود المخلوق لواجب الوجود. وفي هذا التصور الفلسفي الإسلامي

تكون "الواحدية والأحدية" فقط للحق، لله ﷻ واجب الوجود؛ بينما تقوم كل عوالم الخلق المادية والنباتية والحيوانية والإنسانية والفكرية، (أي كل ما عدا الذات الإلهية) على التعدد، والتنوع والتمايز والاختلاف باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانونًا إلهيًا تكوينيًّا، وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل. الأمر الذي يستلزم -لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة- تعايشَ كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق، أي سيادة خُلق السماحة في العلاقات بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات والمذاهب والفلسفات والشرائع والملل والديانات والأجناس والألوان واللغات والقوميات. فبدون السماحة يحل "الصراع" الذي ينهي ويلغي ويفني التعددية محلَّ التعايش والتعارف، الأمرُ الذي يصادم سنة الله ﷻ في الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات.

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهبه في السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذي أراده الله.

وفي التأسيس القرآني لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود نقرأ في آيات الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل، والسماحة هي السبيل إلى تعايشها وتعارفها في الإطار الإنساني العام.

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تتنوع أجناسها وألوانها وألسنتها ولغاتها ومن ثم قومياتها كآية من آيات الله. والسماحة هي السبيل لتعايش

الأجناس والقوميات في إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات.

وهذه الأمم والشعوب تتنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافاتها وحضاراتها، باعتبار ذلك سنةً من سنن الابتلاء والاختبار الإلهي لهذه الأمم والشعوب، وحتى يكون هناك تدافع وتسابق بينها جميعًا على طريق الحق وفي ميادين الخيرات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة:٤٨). وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التي هي علة الوجود، وسر التسابق في عمران هذا الوجود.

وانطلاقًا من هذا الموقف القرآني الذي جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانونًا كونيًّا، كان "العدل" الذي هو معيارُ النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية هو أساس السماحة الإسلامية في التعامل مع كل الفرقاء المختلفين. ففي التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ﴾(النساء:١٣٥)، بل ويوجب الله ﷻ علينا العدل حتى مع مَن نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨).

كذلك يوجب الإسلام علينا العدل في النظر إلى المخالفين لنا في الاعتقاد الذي هو سنة إلهية، ونحن مدعوون وفق منهاج القرآن ألا نضع كل المخالفين لنا في سلّة واحدة، وألا نسلك طريق التعميم الذي يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء المخالفين ومراقفهم. وإقامةً لهذا

المنهاج رأينا القرآن الكريم لا يعمم أبدًا في حديثه عن أهل الكتاب وأصحاب العقائد والديانات، وإنما يميّز بين مذاهبهم وطوائفهم، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران:١١٣).

فالقاعدة القرآنية الحاكمة في التمييز العادل بين الفرقاء المخالفين لنا هي أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. صنع القرآن ذلك عندما ميز فرقاء اليهود فلَم يعمم في الحكم على مجموعهم، وصنع ذلك أيضًا في الحديث عن النصارى عندما ميّز بين مَن هم أقرب مودة للمسلمين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:٨٢-٨٣).

والمنطلق الإسلامي لهذا التمييز المؤسس للعدل والسماحة هو العدل الإلهي الذي هو فريضة إسلامية جامعة. فالله ﷻ رب العالمين جميعًا ﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:١) وليس رب شعب بعينه دون سائر الشعوب. والتكريم الإلهي شامل لكل بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠). ومعيار التفاضل بين البشر المكرمين هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)، وليس معيار التفاضل لونًا أو جنسًا أو سلالة أو أية صفة من الصفات اللصيقة التي تستعصي على الاختيار والكسب والتغيير. ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾(الكهف:٣٠).

وتأسيسًا على هذا العدل الإلهي، أسس القرآن الكريم سماحة الإسلام في النظر إلى مواريث النبوات والرسالات التي سبقت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ؛ فالقرآن الكريم لم يأت نافيًا لما سبقه من كتب، وإنما جاء

مصدِّقًا لها، ومهَيمنًا عليها، أي مشتملاً على ثوابتها ومستوعبًا لأركان العقائد فيها، ومضيفًا إليها، ومصححًا لما طرأ عليها. فعلى حين كانت اليهودية تنكر النصرانية وكانت النصرانية تنكر اليهودية جاء القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾(البقرة:٩١)، ومؤكِّدًا على أن ما أصاب بعض مواضع هذه الكتب لم يمح ما أودعه الله فيها من هُدى ونور ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ۞ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(آل عمران:٢-٤)، فالتوراة ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:٤٤)، وكذلك الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:٤٦).

ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية الفلسفية للكون والوجود، المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف كقانون تكويني (أزلي أبدي)؛ الأمر الذي يجعل السماحة ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً ومرعيًا في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.

التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية

ولأن الإسلام هو الجامع والوارث لكل مواريث النبوات، فلقد تفرد بالسماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(البقرة:٢٨٥).

ولأن السنة النبوية هي التطبيق النبوي للبلاغ القرآني، رأينا احتفاء رسول الله ﷺ بكل الرسل والأنبياء. فالوحي الذي جاء به في عقائد دين الله الواحد هو ذاته الوحي الذي أوحاه الله إلى الخالين من أصحاب الرسالات.

وانطلاقًا من هذا البلاغ القرآني جاء التطبيق النبوي الذي يحتضن بالإيمان كل الرسل والأنبياء، فهم جميعًا أبناء دين واحد، وشرائعهم (أمهاتهم) شتى: "الأنبياء إخوة من علاّت، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد" (متفق عليه). ولذلك خاطب الرسول ﷺ اليهود فقال: "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم"(متفق عليه). وقال عن عيسى عليه السلام: "أنا أولى بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة" (متفق عليه).

ولم يقف هذا التطبيق النبوي للسماحة القرآنية عند حدود السنة القولية، بل تحولت هذه السماحة في التطبيق النبوي إلى واقع معيش، وأخلاق وسجايا، قنّنها وقعدها دستور دولة النبوة في المدينة المنورة وفي العهود والمواثيق التي قطعها وكتبها رسول الله ﷺ لغير المسلمين.

ففي دستور دولة المدينة (الصحيفة، الكتاب) أصبح الآخَر الديني (اليهود) جزءً من الذات (ذات الرعية الواحدة والأمة الواحدة) مع حرية الاعتقاد بالعقيدة الجاحدة لشريعة الإسلام. ونص هذا الدستور على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم".[1]

وعندما جاء وفد نصارى "نجران" سنة ١٠هـ/٦٣١م إلى مدينة رسول الله ﷺ فتح لهم أبواب مسجد النبوة، فصلّوا فيه صلاة عيد الفصح، مولّين

[1] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق: د. محمد حميد الله الحيدرآبادي، القاهرة، ١٩٥٦م، ص:١٧-٢١.

وجوههم إلى المشرق، ثم تركهم وما يدينون.[1] وعقد لهم عهدًا عامًّا دائمًا لهم ولسائر من يتدين بالنصرانية عبر الزمان والمكان.

في الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه السماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية التي أقامت "الدولة"، وتركت الناس أحرارًا في "الدين"؛ فرأينا أبا بكر الصديق ﷺ يوصي أمير الجيش الذاهب إلى الشام يزيدَ بن أبي سفيان "إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذَرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له" (رواه الإمام مالك).

ووجدنا الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ يكتب عهد الأمان (العهد العمري) لأهل القُدس (إيليا) عند فتحها سنة ١٥هـ/٦٣٥م الذي قرر فيه: "الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها، وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم. ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود (وفق ما طلبوا)، وعلى أهل إيليا أن يُخرجوا منها الروم واللصوص؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن؛ ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيَعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء،

[1] سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف بن صالح الشامي، ٦/٦٤٢.

وذمة المؤمنين".[١]

بل لقد امتدت هذه السماحة الإسلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات السماوية (اليهود والنصارى) إلى أهل كل العقائد والديانات، فشملت المتدينين بالديانات الوضعية من أهل البلاد التي دخلت في الدولة الإسلامية. وعندما فتحت فارس -وأهلها مجوس عبدة للنار- سأل عمر بن الخطاب ﷺ مجلس الشورى (مجلس السبعين) عن الموقف من أهل هذه الديانات غير السماوية: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال: أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب".[٢]

والإسلام لم يفرض على منكريه وجاحديه والكافرين به عقوبة دنيوية، وإنما أعلن أن حِسابهم على الله يوم الدين. ولذلك قال الإسلام حتى للمشركين الذين أشركوا الأوثان والأصنام مع الله ﷻ: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٤-٦).

ولم يقم رسول الله ﷺ حدًّا ولا عقوبة دنيوية على الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا، ولا على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره. فـ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)؛ لأن الإكراه يثمر نفاقًا، ولا يثمر إيمانًا، إذ الإيمان تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل.

ولم يُقم رسول الله ﷺ وهو رأس الدولة حدًّا على مرتدّ إلا في الحالة الواحدة التي لم يقف فيها الأمر عند الردة عن الدين، وإنما بلغ الأمر مرتبة الحرابة والخروج المسلح على الأمة والدولة؛ فالنفر الذين اغتصبوا إبِل

---

[١] الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص:٣٤٥-٣٤٦.

[٢] الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص:٣٤٥-٣٤٦.

الصدقة (مال الدولة) وقتَلوا الغلمان الذين كانوا يرعون هذه الإبل (عمّال الدولة) ومثّلوا بجثثهم، وارتدوا عن الإسلام، قد ارتكبوا جريمة مركبة، صنفها الإسلام تحت حد الحرابة، وليس في باب الردة، وذلك عندما نزل في هؤلاء النفر قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:٣٣-٣٤).

ولأن هذا هو موقف السماحة الإسلامية من المخالِفين في الاعتقاد، فلقد جاء حديث القرآن الكريم عند الإذن بالقتال والتحريض عليه دائمًا وأبدًا في سياق الحديث عن صدّ عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم من أوطانهم، لا لشيء إلا لإيمانهم بالإسلام ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(الحج:٣٩-٤٠). فحرية الدعوة والضمير، وحرية الوطن الإسلامي هما معيار "الولاء" و"البراء"، و"السلم" و"الحرب" بين المسلمين وغير المسلمين. وفي التقعيد لهذه القاعدة الكلية جاءت آيات القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الممتحنة:٨-٩).

في التاريخ الإسلامي

وإذا كان المسلمون قد فتحوا في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، فإن كل معارك الفتوحات الإسلامية قد وقفت عند تحرير الشرق من قهر القوى الاستعمارية وخاصة الروم الذين استعبدوا الشرق وقهروه، ومن قبلهم الإغريق عشرة قرون من الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هرقل في القرن السابع بعد الميلاد.

وقفت كل معارك الفتوحات الإسلامية، عند تحرير الشرق من هذا القهر السياسي والديني والثقافي والحضاري، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد الشرقية التي شهدت معارك تلك الفتوحات. بل لقد حارب أهل تلك البلاد وساعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية ضد الفرس والروم وهم على دياناتهم القديمة. حدث ذلك بمصر والشام والعراق.

وعندما تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يَدينون، حتى إن الذين دخلوا في الإسلام من أهل مصر والشام وفارس بعد قرن من الفتح لم يزيدوا على عشرين بالماءة من السكان.[1] فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحرَّرة من الروم المتربصين الذين ظلوا يجيّشون الجيوش لإعادة اختطاف الشرق حتى فتح القسطنطينية، كما ظلت هذه الدولة الإسلامية حارسة لحرّية الضمير والاعتقاد الديني، الذي سبق وقهره الرومان عشرة قرون.

---

[1] المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارج، يوسف كرباج، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص:٢٥.

ولقد شهد بهذه الحقيقة -حقيقةِ سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التي دخلت في دولة الإسلام- التاريخُ والمؤرخون، وغير المسلمين منهم قبل المسلمين.

فهذا الفتح الإسلامي هو الذي أنقذ المسيحية الشرقية من الإبادة والزوال، حتى ليمكن أن نقول -دون مبالغة- إنّ بقاء هذه المسيحية الشرقية حتى الآن إنما هو هبَةُ الإسلام وسماحة الإسلام.

فعمرو بن العاص ﷺ هو الذي أمّن البطرك المصري "بنيامين" على حريته، وأعاده إلى شعبه بعد ثلاثة عشر عامًا من الهرب والاختفاء عن أعين الرومان.. وهو الذي حرر كنائس نصارى مصر وأَدْيرتهم من الاغتصاب الروماني، لا ليجعلها مساجد، وإنما ليردها لأصحابها النصارى يتعبدون فيها بحرية، للمرة الأولى في تاريخ النصرانية المصرية. ومع تحرير الأرض والكنائس والأديرة حرر عمرو بن العاص ﷺ -لأنه مسلم- ضمائر الشعوب التي أدخلتها الفتوحات في دولة الإسلام، لأول مرة في تاريخ نصرانية تلك الشعوب بعد أن كان الرومان يقدمونهم طعامًا للنيران والأسود!..

وشهد شاهد من أهلها

وإذا كانت نجاة النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية هي الشاهد الماديّ الأصدق على حقيقة السماحة الإسلامية، فإن المؤرخين النصارى -من الشرق والغرب، القدماء والمحدثين- قد شهدوا هم أيضا لهذه السماحة الإسلامية.

ففي أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص

ﷺ مع نصارى مصر، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان، وهزيمة الاستعمار الروماني بمصر على يد الجيش الإسلامي الفاتح إنما كان انتقامًا إلهيًّا من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر.. ففي تاريخ "يوحنا النقيوسي" -وهو معاصر للفتح وشاهد عليه-: "إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرّئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (العرب المسلمين) ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان هرقل حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكّامهم مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص ﷺ يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافَظ عليها (الكنائس) طوال الأيام".[1]

إنها شهادة شاهد عيان نصراني على هذه السماحة الإسلامية التي تجسدت على أرض الواقع. ومتى؟ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان. وهي سماحة نابعة من الدين الإسلامي، وليست كحقوق المواطنة التي لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين.

وبعدما استقبل عمرو بن العاص ﷺ البطرك القبطي "بنيامين"، وأمّنه على نفسه وكنائسه ورعيته وحرية عقيدته بل وطلب منه أن يدعو له، أخذ "بنيامين" في زيارة كنائسه وفي إعادة افتتاحها. وكان الناس يستقبلونه فرحين، مرددين العبارات التي تشهد على أن هذا الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء الظلم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

---

[1] تاريخ مصر، ليوحنا النقيوسي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص:٢٠١-٢٠٢.

ولقد عبّر الأنبا "بنيامين" عن الأمان الذي أحلّته سماحة الإسلام بمصر، على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان (النصارى) ضد نصارى مصر. فقال وهو يخطب في دير "مقاريوس": "لقد وجدتُ في الإسكندرية من النجاة والطمأنينة اللتَين كنتُ أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون".[١]

تلك شهادات شهود العيان ورجال الدين النصارى تقول: إن الفتوحات الإسلامية كانت "الإنقاذ" لشعوب تلك البلاد ودينهم من القهر الروماني، وإن سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله، انتقم الله بها من مظالم الرومان. حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته -وزوال الإمبراطورية الشرقية للرومان- و"سيادة الإسلام" في مصر والشرق آية من آيات الله.

بل لقد زحف رهبان النصرانية المصرية من الأديرة والمغارات التي كانوا هاربين فيها من الاضطهاد الروماني.. زحفوا للقاء عمرو بن العاص ﷺ، حتى "ليُروى أنه خرج للقائه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه. وأنه كتب لهم كتابًا (بالأمان) هو عندهم".[٢]

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية، فلقد هبّوا عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥هـ/٦٤٦م، في عهد الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ، هبّوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان النصارى، وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص لقيادة المعركة. فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الرومان.

---

[١] تاريخ مصر، ليوحنا النقيوسي، ص:٢٢٠.

[٢] تاريخ مصر في العهد البيزنطي، ص:١٩٤.

تلك هي السماحة الإسلامية.. كما تجلّت في القرآن الكريم.. وفي البيان النبوي للبلاغ القرآني.. وكما تجسدت في المواثيق الدستورية.. وفي الحياة العملية والواقع المعيش للدولة الإسلامية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.. وكما شهدت بها المصادر التي كتبها المؤرخون الثقات من النصارى الشرقيين والغربيين.. القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين، والذين تعمدنا الاعتماد على شهاداتهم هم وحدهم، دون شهادة المؤرخين المسلمين. وذلك عملاً بمنهاج ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾(يوسف:٢٦) على هذه السماحة الإسلامية، التي تفرّد بها الإسلام، والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام.

فلسفة الإسلام في التعايش

مع الآخر الديني والثقافي

- مع الآخر الديني
- التوترات الدينية استثناء
- العلاقة مع الآخر الثقافي
- موقف التفاعل المتوازن

بالفلسفة الإسلامية في النظرة للآخر الديني، حقق الإسلام "ثورة إصلاحية وإصلاحًا ثوريًّا" تجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث جعل هذا "الآخر في الشريعة" جزءً من "الذات الدينية الواحدة"، وذلك لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات.

فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي

يؤسس القرآن الكريم لفلسفة إسلامية متميزة في رؤية الكون والحياة والعلاقات بين الأحياء. وفي هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة معالم رئيسية، يمكن أن نشير إلى عدد منها:

أ- أن الواحدية والأحدية هي فقط للذات الإلهية.[1]

ب- وأن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف هو سنة إلهية كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات. وأن هذه التعددية هي في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله ﷻ. فالإنسانية التي خلقها الله من نفس واحدة تتنوع إلى شعوب وقبائل وأمم وأجناس وألوان. وكذلك إلى شرائع في إطار الدين الواحد. وإلى مناهج، أي ثقافات وحضارات في إطار المشترك الإنساني الواحد، الذي لا تختلف فيه الثقافات. كما تتنوع إلى عادات وتقاليد وأعراف متمايزة حتى داخل الحضارة الواحدة، بل والثقافة الواحدة.

وهذا التنوع والاختلاف والتمايز يتجاوز كونه "حقًّا" من حقوق الإنسان، إلى حيث هو "سنة" من سنن الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ

---

[1] انظر: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص:١-٤).

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(النساء:١).. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩). وكما يقول المفسرون: "فللاختلاف خلقهم".

فالواحدية والأحدية فقط للحق سبحانه.. والتنوع هو السنة والقانون في كل عوالم المخلوقات.

جـ- وأن هذا التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف له مقاصد عديدة، منها: تحقيق حوافز التسابق على طريق الخيرات بين الفرقاء المتمايزين: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾(المائدة:٤٨). ومنها: فتح أبواب الحرية للاجتهاد والتجديد والإبداع، الذي يستحيل تحقيقه دون تفرد وتمايز واختلاف: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(البقرة:١٤٨).

د- وأن علاقة الفرقاء المتمايزين والمختلفين والمتعددين يجب أن تظل في إطار الجوامع الموَحِّدة، وعند مستوى التوازن والعدل والوسطية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣). "فالوسط" -بنص الحديث النبوي- هو "العدل" الذي يجب أن يحكم علاقات الفرقاء المختلفين،" (رواه الإمام أحمد).

هـ- فإذا اختلت موازين العدل والوسط بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين في الطبقات الاجتماعية أو الشرائع الدينية أو الفلسفات أو الحضارات، فإن الفلسفة الإسلامية تحبذ طريق "التدافع" الذي هو حراك يُعَدّل المواقف والمواقع والاتجاهات، فينتقل بها من مستوى الخلل

والظلم والجور والعدوان إلى مستوى العدل والتوازن والوسط والتعايش والتعارف، مع المحافظة على بقاء التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤).

وهذا "التدافع" الذي هو وسط بين تفريط "السكون والموات" وبين إفراط "الصراع"، هو المزكي للتعددية، وللتنافس والتسابق على طريق الخيرات، بينما السكون يفضي إلى الموات للمستضعفين. كما أن الصراع يفضي إلى نفس النتيجة؛ لأن القوي يصرع الضعيف، فينفرد بالساحة، وينهي التعدد والتمايز والاختلاف. فالتدافع هو الذي يُعَدِّل المواقف الظالمة، مع الحفاظ على التعددية وعلى التنافس والتسابق على طريق الخيرات. فهو سبيل للإصلاح في ظل التنوع والتعدد، وليس على أنقاض التنوع والتعدد: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١).[1]

هذا هو موقع التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في الرؤية الإسلامية للكون والحياة والعلاقات بين عوالم المخلوقات والأفكار، ودور هذا التنوع في التقدم والإصلاح.

وذلك هو تميز الفلسفة الإسلامية بالوسطية الجامعة عن غيرها من نزعاتِ وفلسفات الدمج القسري للكل في واحد.. أو نزعات وفلسفات الصراع التي تفضى هي الأخرى إلى انفراد طرف واحد -هو الأقوى- بالساحة والامتيازات. فطرَفا الغلو يفضى كل منهما إلى ذات النهاية..

---

[1] انظر: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾(الحج:٤٠).

وبينهما تتميز الوسطية الإسلامية في هذا الميدان..

مع الآخر الديني

وفي دولة النبوة بالمدينة المنورة سنّ رسول الله ﷺ ثلاث سنن جسّدت فلسفة الإسلام في العلاقة بالآخر الديني؛ الكتابي منه والوضعي: اليهود والنصارى، والمجوس ومن ماثلهم.. ولقد صيغت هذه السنن النبوية، المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية، في وثائق دستورية، طبّقتها دولة النبوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام.

١-مع الآخر اليهودي: وأُولى هذه الوثائق الدستورية هي "الصحيفة، الكتاب"، دستور دولة المدينة المنورة، الذي وضعه رسول الله ﷺ عقب الهجرة، وفور إقامة "الدولة" ليحدد حدود الدولة، ومكونات رعيتها (الأمة)، والحقوق والواجبات لوحدات الرعية، بمن فيهم الآخر الديني (اليهود العرب وحلفاؤهم العبرانيون)، وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيتها.

وفي هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها -التي زادت على الخمسين مادة- عن التنوع الديني في إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المساواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود، أي عن التنوع الديني في إطار وحدة الأمة: "..ويهودُ أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ -"يُهلك"- إلا نفسه وأهل بيته، ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسوة مع البرّ المحض من أهل

هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهم، ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..".[1]

فكانت هذه الوثيقة الدستورية أول "عقد اجتماعي وسياسي وديني" -حقيقي وليس مفترضًا ومتوهما- لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءً من الرعية والأمة والدولة -أي جزءً من الذات- له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق.

٢-مع الآخر النصراني: أما الوثيقة الدستورية الثانية، فهي خاصة بالعلاقة مع الآخر النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران -عهدًا لهم ولكل المتدينين بالنصرانية عبر المكان والزمان- وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية. وفي هذا العهد الدستوري كتب رسول الله ﷺ: "لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله، وذمة محمد رسول الله ﷺ، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أَن أحمى جانبهم وأذبّ عنهم وعن كنائسهم وبيَعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملّتهم أين ما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصّتي وأهل الإسلام من ملتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين،

[1] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله، القاهرة، ١٩٥٦م، ص:١٥-٢١.

وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".[١]

فبلغت هذه الوثيقة في الاعتراف بالآخر الديني، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، مالم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية، مع ميزة كبرى، وهي جعلها لهذا التنوع والاختلاف في إطار وحدة الأمة، تجسيدًا لفلسفة الدين الإسلامي في العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين كل دين.

٣–مع الآخر أهل الديانات الوضعية: أما السنة النبوية الثالثة التي قننت للعلاقة بالآخر الديني، فلقد مدّت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية؛ فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السنة عندما دخل المتدينون بالمجوسية في إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشدة على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ. فلقد عرض عمر ﷺ هذا الواقع الجديد على مجلس الشورى (مجلس السبعين)، وسأل: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال: "أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا فيهم سنة أهل الكتاب".[٢]

التوترات الدينية استثناء

منذ القرن الهجري الأول ضمت الدولة الإسلامية أوطانًا وديارًا وأقاليم، كما ضمّت شعوبًا وقبائل وديانات وفلسفات ومذاهب جسدت كل ألوان وأطياف التنوع والاختلاف الذي عرفه الإنسان في ذلك التاريخ.

---

[١] مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص:١٢٣–١٢٨.

[٢] فتوح البلدان، للبلاذري، القاهرة، ١٩٥٦م، ص:٣٢٧.

ولقد تعاقب على حكم الخلافة الإسلامية، والدول التي تفرعت عنها وورثت سلطانها ألوان من الخلفاء والسلاطين والولاة، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم العادل ومنهم الجائر، ومنهم الذي جمع بين المتناقضات.

ولا يتصور عاقل أن تاريخًا بهذا الطول (قرابة خمسة عشر قرنًا) لأمة بهذا التنوع، وعالم بهذا الاتساع، وفي ظل تحديات خارجية شرسة، يمكن أن يخلو من التوترات الدينية بين الفرقاء الذين عاشوا على أرض الإسلام. لكن النظر إلى هذه التوترات الدينية التي تمثل خروجًا عن السنة النبوية التي تقررت منذ دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة يجب أن يكون في حجمها الحقيقي، وفي إطار مقارنتها بما كانت عليه الحضارات الأخرى، كما حدث بين البروتستانت والكاثوليك في الحروب الدينية الأوروبية التي دامت أكثر من قرنين، وأبيد ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا، والحروب بين البيض والسود في أمريكا.. وفوق ذلك ومعه، يجب النظر إلى هذه التوترات الدينية والطائفية في إطار الأسباب الحقيقية التي ولّدت وقائعها وأحداثها.

ولعل شهادة العلماء والباحثين غير المسلمين أن تكون خير شاهد من أهلها على حقيقة حجم هذه التوترات وأسبابها:

فالعالم الإنجليزي الحجة "سير توماس أرنولد" يشهد للحرية الدينية التي قرّرها الإسلام وحضارته، والتي وسعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليمكن القول:

إن بقاء النصرانية الشرقية هو "هبة الإسلام".[١]

والعالم الألماني الحجة "آدم متز" يتحدث عن دور غير المسلمين في إدارة دواوين الدولة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي، فيقول: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام".[٢]

أما الباحث والمؤرخ المسيحي اللبناني "جورج قرم"، فإنه يرجع التوترات الدينية والطائفية -العابرة والمحدودة- التي شهدها التاريخ الإسلامي إلى عوامل ثلاثة، هي:

١- المزاج الشاذ لبعض الحكام الشواذ الذين حكموا بعض البلاد الإسلامية لبعض الوقت والذين اضطهدوا الأقليات كجزء من اضطهادهم العام للرعية كلها.

٢- صلف الوزراء والجباة والقادة غير المسلمين، واستعلاؤهم على جمهور المسلمين، وثراؤهم المستفز، وظلمهم واضطهادهم لعامة الفقراء المسلمين؛ الأمر الذي ولّد ردود أفعال طائفية لم تقف عند الذين ظُلموا من أبناء هذه الأقليات خاصة، وإنما عمت البلوى جماهير الأقليات.

٣- غواية الاستعمار الأجنبي -الصليبي والإنجليزي والفرنسي- لقطاعات من أبناء الأقليات، كي تمالئ الغزاة، وتخون أمتها ووطنها، ونجاح هذه الغوايات الاستعمارية في كثير من الأحيان، الأمر الذي ولّد ردود أفعال عنيفة ضد أبناء هذه الأقليات التي وقعت في شباك الغوايات.[٣]

هذا هو حجم التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي.. وتلك هي أسباب

---

[١] الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، القاهرة، ١٩٧٠، ص:٧٢٩-٧٣٠.

[٢] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، بيروت، ١٩٦٧م، ١/١٠٥.

[٣] تعدد الأديان وأنظمة الحكم، جورج قرم، بيروت، ١٩٧٩م، ص:٢١١-٢٢٤.

هذه التوترات، كما شهد بها المنصفون من العلماء والباحثين غير المسلمين.[١]

العلاقة مع الآخر الثقافي

في الموقف من الثقافات التي تنتشر على النطاق العالمي، وفي إطار الحضارات غير الإسلامية، هناك مواقف ثلاثة، لكل واحد منها أنصار ومحبذون:

وأول هذه المواقف هو موقف المثقف "خالي الشغل"، ذلك الذي يمثل عقله صفحة بيضاء خالية من الموقف والخصوصية والذاتية الحضارية، وتنطبع عليها كل ألوان الوافد والمستورد، حتى لكأن عقله هذا مكتب من مكاتب الاستيراد، التي تعيش بها وعليها طبقة "الكومبرادور" الطفَيلية، التي لا علاقة لها بالإنتاج الوطني والقومي، ولا علاقة لعقولها بالإبداع الفكري والثقافي والحضاري.

وثاني هذه المواقف هو موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى في الحفاظ على لغاتها وآدابها وفنونها وثقافاتها، وفي التطوير لهذه الثقافات، والتجريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات.

وأصحاب هذا الموقف يحلمون بـ"المستحيل - الضار".. فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديمًا، فما بالنا به في عصر ثورة وسائل الاتصال؟!

وهذا المستحيل ضار -على فرض إمكان تحققه- لأن الانغلاق الثقافي

---

[١] انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ)؛ عجائب الآثار، للجبرتي (١١٦٧-١٢٣٧هـ).

يؤدي بأصحابه إلى مثل ما يؤدي إليه الإضراب عن الطعام والشراب بجسم الإنسان، حيث يتغذى الجسم على ذاته، فيستهلك هذه الذات، ويصاب بالذبول والضمور والاضمحلال.

وإذا كانت التبعية الثقافية تؤدّي بأصحابها إلى التقليد الذي يذيب التميز، فتضمحل به الذاتية والخصوصية، فإن الانغلاق يقود -هو الآخر- إلى ذات النتيجة البائسة والمأساوية.. فكلا التفريط والإفراط يفضيان إلى مأساة الذبول والاضمحلال للشخصية الوطنية والقومية في الثقافة والحضارة.

موقف التفاعل المتوازن

أما الموقف الثالث من الثقافات العالمية، فهو الوسط العدل الذي يختار طريق "التفاعل" مع الحضارات والثقافات العالمية، من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط في الخصوصية يؤدي إلى "الانغلاق" أو تفريط يؤدي إلى "التبعية" والتقليد والذوبان.

وهذا التفاعل مع الثقافات العالمية هو الذي يميّز بين خصوصيتنا الثقافية المتمثلة في منظومة القيم الإسلامية، التي هي معايير القبول والرفض لما لدى الآخرين، وبين ما هو مشترك إنساني عام، سواء أكان هذا المشترك علومًا طبيعية ودقيقة ومحايدة، أو تطبيقات لهذه العلوم في التقنيات التي يتم بها عمران الواقع المادي في المجتمعات الإسلامية، أو كان هذا المشترك الإنساني العام خبرات وتحارب إنسانية في ميادين ترقية الثقافة واللغة وتطعيم ثقافتنا وإثرائها بالقوالب المستحدثة والنافعة في الفضاءات الثقافية الأخرى.

فهذا الموقف الثالث -موقف التفاعل الخلاق بين الثقافات

والحضارات- هو النافع... وهو الوسط العدل بين غلوّ الإفراط والتفريط في الانغلاق والعزلة وفي التبعية والتقليد.

بل إن هذا الموقف الثالث (الوسطي والمتوازن والعادل) يكاد يكون هو القانون العادل الذي حكم العلاقات الصحية والناضجة بين الثقافات والحضارات على مر التاريخ.

فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة مدرسة الإسكندرية في القرن الهجري الأول، ترجموا علوم الصنعة (تقنيات العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة) ولم يترجموا ديانات مصر (الوثنية أو النصرانية) ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية. وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الروماني، منذ عصر الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ، فلقد أخذوا نظم الدواوين، دون أن يأخذوا القانون الروماني. وكذلك كان الحال في التفاعل الإسلامي مع الحضارة الفارسية؛ فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس في التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية. وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامي مع المواريث الهندية؛ إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها، دون أن يأخذوا فلسفتها وديانتها. ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقي؛ فأخذوا من الإغريق العلوم الطبيعية والتجريبية، دون أن يأخذوا وثنية الإغريق. وبنفس المعايير كان انفتاح الحضارة الأوروبية -إبان نهضتها- على الحضارة الإسلامية، عندما أخذت العلوم التجريبية والمنهج التجريبي، والخبرات الإسلامية، دون منظومة القيم الإسلامية، والعقائد الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين.

إن الخصوصية الثقافية هي الضرورة المحركة للعقل المسلم كي

يبدع ويجدد؛ بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضي إلى الذبول والذوبان والاضمحلال.

لقد تميزت فلسفة الإسلام في النظر إلى الشرائع والملل والنحل الدينية غير الإسلامية، وفي العلاقة بالمتدينين بتلك الشرائع والملل والنحل بالموقف الوسطي الذي قرر أن دين الله واحد، من آدم إلى محمد ﷺ. إن الشرائع السماوية متعددة بتعدد أمم النبوات والرسالات في إطار وحدة عقائد هذا الدين الإلهي الواحد. فتحققت بهذه الفلسفة الوحدةُ الدينيةُ مع التمايز في الشرائع الدينية أيضًا.

وبهذه الفلسفة الإسلامية في النظرة للآخر الديني حقق الإسلام "ثورة إصلاحية.. وإصلاحًا ثوريًّا" تجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث جعل هذا "الآخر في الشريعة" جزءً من "الذات الدينية الواحدة"، وذلك لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات.

ووحده الإسلامُ هو الذي بدأت به مسيرة جعل الآخر جزءً من الذات الدينية؛ فقرر للآخَرين ذات الحقوق وذات الواجبات في الدولة والأمة: "لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..".

بل لقد جعل الإسلام من الآخر الديني جزءً من أولي الأرحام عندما أقام الأسرة -وليس فقط الأمة- على التنوع الديني. فأصبحت الزوجة الكتابية سكَنًا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، بينهما ميثاق الفطرة.. حتى لكأنهما ذات واحدة يجمعها لباس واحد: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ

وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(البقرة:١٨٧).[١]

ولأن فلسفة الإسلام وهي تتطلع إلى المثالي، لا تغفل عن مكنونات "الواقع" تميزت بالعدل الذي لا يضع كل أهل الكتاب في سلّة واحدة وصنف واحد، بينما ميّزت بين فرقائهم بحسب موقف كل فريق من "الكلمة السواء"، التي هي التمايز في الشرائع بإطار وحدة الدين: "الأنبياء أبناء علاّت، دينهم واحد، وأمهاتهم شتّى" (متفق عليه). ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٤).

فأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١١٣-١١٥).

وليس من العدل أبدًا التسوية بين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وبين الذين دخلوا في لون من الشرك والكفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾(المائدة:٧٢).

لكن الإسلام مع هذا التمييز بين فرقاء أهل الكتاب، والعدل في التمييز بين مواقفهم من "الكلمة السواء"، قد جعل حساب كل ذلك إلى الله وحده

[١] انظر: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء:٢١).

يوم الدين. أما في الدنيا والدولة والتكريم الإلهي لمطلق بني آدم، فقد قرر الإسلام لكل هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قررها للمسلمين المؤمنين بكل الكتب وكل النبوات والرسالات.. وبنص عبارة رسول الله ﷺ في عهده لنصارى نجران وكل من ينتحل دعوة النصرانية: "فإن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي مرتكزات التعايش مع الأديان الأخرى، في القرآن الكريم، وفي التطبيق النبوي لهذا القرآن الكريم.

الحرية وحقوق الإنسان

- الحرية والتحرير في القرآن الكريم
- الإسلام وتقويض نظم الاسترقاق
- ضوابط الحرية المشروعة
- الإسلام وآفاق الحرية الإنسانية
- الإكراه يثمر نفاقًا لا إيمانًا
- حقوق الإنسان من منظور إسلامي

إذا كانت حضارات حديثة ومعاصرة قد جعلت الحرية "حقًّا" من حقوق الإنسان، فإن الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، قد جعلها "فريضة إلهية وواجبًا شرعيًّا وضرورة من الضرورات" لا يحل للإنسان أن يتنازل عنها حتى بالطواعية والاختيار، بل وجعلها بمثابة "الحياة".

الحرية وحقوق الإنسان

إن علامة الإسلام وجوهره؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وبالتوحيد يتم تحرير الإنسان من استعباد كل الطواغيت والقوى المادية والموهومة، والظواهر الطبيعية التي طالما استعبدته على مر تاريخ الوثنيات. ولذلك كانت شهادة التوحيد أفعل شهادات التحرير للإنسان؛ ذلك أن إفراد الله بالعبودية والإخلاص له، لا يحرران الإنسان فقط من استعباد الطواغيت، وإنما يمثلان تديّنًا بدينٍ جعل التحرر والحرية مَعْلَمًا من المعالم الرئيسة التي جاء بها كتاب هذا الدين، وركنًا من أركان الرسالة الخاتمة التي بلغها الرسول ﷺ.

الحرية والتحرير في القرآن الكريم

فالقرآن الكريم يذكر الحرية والتحرير ضمن معالم هذه الرسالة المحمدية، وذلك عندما يتحدث عن المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الأعراف:١٥٧).

فمن مهام هذا الدين ومعالمه؛ وضع الآصار عن الإنسان وتحريره من الأغلال، بل لقد بلغ سمو الإسلام وحرصه على إنسانية البشر إلى أن جعل الحرية فطرةً فطرَ اللهُ الناس عليها، مطلق الناس وليس فقط الذين حررتهم شهادة التوحيد. فهي من معالم تكريم الله ﷻ للإنسان مطلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠). وعندما قال الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ كلمته الجامعة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟! كان "الناس" هنا نصارى غير متدينين بالإسلام، لكنهم من خلق الله الذين استحقوا التكريم بخلق الله ﷻ.

الإسلام وتقويض نظم الاسترقاق

ولم يقف الإسلام عند تحرير الروح وحدها من عبودية الآصار والأغلال التي شدتها إلى الطواغيت -رغم أنها الجوهر ونقطة البداية في التحرير- وإنما شرع في تقويض نُظم الاسترقاق التي جاء فوجدها سائدة في النظم الاجتماعية والاقتصادية بكل الحضارات. فأمام الروافد العديدة والمنابع الكثيرة التي تمد نهر الرقيق -صباح مساء- بالجديد والمزيد من الأرقاء، من مثل الحروب العدوانية، والغارات الدائمة، والفقر المدقع، والعجز عن سداد الدَّيْن، وقطع الطريق... إلخ. فقد شرع الإسلام في إغلاق كل هذه الروافد والمنابع، ولم يبقَ سوى الأَسْر في الحروب المشروعة، وحتى أسرى هذه الحرب المشروعة خيّرهم بين "المن" وبين "الفداء".[1]

ثم استدار -بعد تجفيف منابع الاسترقاق- إلى تركة ذلك النظام،

---

[1] ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾(محمد:٤).

فوسّع مصابّ نهر الرقيق، فجعل كفارات العديد من الذنوب تحريرَ الأرقاء، ورغّب في هذا التحرير طلبًا للحسنات والعتق من النار.

ولقد جعل الإسلام هذا العتق أو تحرير الرقاب أحد مهام الدولة الإسلامية، ومصرفًا من مصارف الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام الخمسة، بل وتقدم على درب التحرير خطوات أبعد عندما أعطى الرقيق من الحقوق؛ من مثل المساواة بمالكيهم، والمشاركة لهم في الطعام واللباس، وعدم تكليفهم من العمل ما لا يطيقون، بل وإلغاء كلمتي "العبد" والـ"الأَمَة" في لغة الخطاب واختيار كلمتي "الفتى" و"الفتاة" بدلاً منهما،[1] الأمر الذي جعل الاسترقاق "عبئًا اقتصاديًّا" على مُلاك الرقيق بعد أن كان من أهم مصادر "الاستغلال" والإثراء.

بهذا الإصلاح "الجذري والشامل والمتدرج" في ذات الوقت، أنجز الإسلام بالسلم ما لم تنجزه الحروب والثورات في ميدان تحرير الأرقاء؛ فأقام مجتمعًا بلغ فيه بلال الحبشي ﷺ -الذي كان رقيقًا، اشتراه أبو بكر الصديق ثم أعتقه- المكانة التي يقول عنه مثل عمر بن الخطاب: سيدُنا (أي أبو بكر) أعتق سيدَنا (أي بلالاً) (رواه البخاري).

وإذا كانت حضارات حديثة ومعاصرة قد جعلت الحرية "حقًّا" من حقوق الإنسان، فإن الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، قد جعلها "فريضة إلهية وواجبًا شرعيًّا وضرورة من الضرورات" لا يحل للإنسان أن يتنازل عنها حتى بالطواعية والاختيار، بل وجعلها بمثابة "الحياة".

---

[1] وردت في ذلك أحاديث عدة أخرجها البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وغيرهم، منها: "لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولا يقولن المملوك: ربي وربتي، وليقل فتاي وفتاتي، وسيدي وسيدتي، كلكم مملوكون، والرب الله ﷻ".

لقد علّل علماؤنا جعْل الإسلام كفارة "القتل الخطأ" تحرير رقبة، بأن "الرقَّ موتٌ" و"الحريةَ حياةٌ". فلما كان القاتل قد أخرج نفسًا من عداد الأحياء إلى عداد الأموات، فعليه أن يُخرِج نفسًا من عداد الأموات (الأرقاء) إلى عداد الأحياء (الأحرار).[1] نعم، قال علماؤنا بذلك في تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾(النساء:٩٢).

ضوابط الحرية المشروعة

وإذا كانت كل الحضارات والعقائد والمجتمعات قد اشتركت في وضع ضوابط وآفاق للحرية المشروعة لا تتعداها، فإن هذه الضوابط والآفاق التنظيمية قد تمايزت في هذه الحضارات والمجتمعات بتمايز فلسفاتها الخاصة بمكانة الإنسان في الكون، وطبيعة العلاقة بينه وبين خالق هذا الكون؛ فما يُعَدّ في مجتمعٍ ما وعقيدةٍ بعينها مقوّمًا من مقوماتهما الاجتماعية، وأساسًا من أسس عمرانهما، وركنًا من أركان اجتماعهما البشري، يجعلونه سقفًا للحرية لا تتعداه.

فليس هناك مجتمع يفتح آفاق الحرية وأبوابها "للخيانة الوطنية" أو لتقويض "أسس النظام الاجتماعي" أو "للجريمة" أو "للعدوان"، بل ولا "للعيب" في ذات الحاكم أو "إهانة" قطعة قماش إذا كانت علَم الوطن ورمزه. فالجميع متفقون على أن هناك سقفًا للحرية وآفاقًا يجب أن لا تتعداها؛ حفاظًا على المقومات التي يحفظ قيامها ما هو متاح للجميع من حريات وحرمات.

---

[1] انظر تفسير النسفي "مدراك التنزيل وحقائق التأويل"، ج:١، ص:١٨٩، طبعة القاهرة، سنة ١٣٤٤هـ.

الإسلام وآفاق الحرية الإنسانية

والإسلام مع هذا المبدأ، لكنه يتميز في الفلسفة التي تحدد آفاق الحرية في المجتمع الذي تسود شريعته فيه. والمدخل إلى هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة في آفاق الحرية الإنسانية، هو نظرة الإسلام إلى مكانة الإنسان في هذا الكون.

ففي حين ترى الفلسفات المادية والوضعية في الإنسان "سيد الكون"، فتحرّر حريته من ضوابط الشريعة الإلهية وأُطر الحلال والحرام الديني، حتى يستطيع -كما في الديمقراطيات الغربية- أن يحرم الحلال ويحلل الحرام إذا هو أراد! فإن الإسلام يرى الإنسان خليفةً لله ﷻ في عمارة هذه الأرض، له حرية وإرادة وقدرة واستطاعة، لكنها حرية الخليفة والنائب والوكيل، المحكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف.

إن حرية الإنسان -وإن بلغت في الإسلام مرتبة الضرورة والفريضة- محكومة بحقوق الله ﷻ التي هي حدود الشريعة ومعالمها وفلسفتها في التشريع. وهنا -وبهذا الاتساق- تكون العبودية لله حرية وتحريرًا، وتكون الحرية والإنسانية ملتزمة بآفاق الشريعة وحدود الله ونطاق العبودية لله الواحد.

ليست الحرية في الإسلام هي تلك التي تحرّم "العيب في الذات الملكية"، بينما تبيح "العيب في الذات الإلهية"! ولا هي تلك التي تجرّم إهانة "علَم الدولة" في ذات الوقت الذي تسمح فيه بإهانة المقدسات الدينية، ولا هي الحرية التي تقدّس "الوضع البشري" على حين تتحلل من "الوضع والتشريع الإلهي"، ولا التي تعلي من شأن "المصلحة" دون ضبطها بالمعايير "الشرعية" لتكون "مصلحة شرعية معتبرة".

إن سيد الكون والوجود هو خالقه، وهو الذي استخلف الإنسان وفطره على الحرية؛ حرية الخليفة المحكومة بحدود شريعة الاستخلاف.

الإكراه يثمر نفاقًا لا إيمانًا

وإذا كان "الإيمان الديني" -والذي هو تصديق بالقلب يبلغ مرتبة اليقين- لا يمكن أن يأتي ثمرة للإكراه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٨)، لأن الإكراه يثمر "نفاقًا" لا "إيمانًا". فإن الإيمان الديني -في نظر الإسلام- واحد من أهم مقومات الاجتماع البشري، فالحفاظ عليه والحيلولة دون "حرية هدمه" و"إباحة تقويضه"، إلى جانب أنه وفاء بحق الله على الإنسان الذي خلقه ليعبده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، فإنه أيضًا حق من حقوق انتظام الاجتماع البشرية وارتقاء العمران الإنساني.

ولعل في تحلل وانهيار الحضارات والمجتمعات التي جعلت من "المصلحة الدنيوية وحدها"، بل ومن اللذات والشهوات "سقوفًا" وحيدة للحرية، على حين أهملت ضوابط الشرائع الإلهية وحدود الحلال والحرام الديني، ما يزيد الإنسان المسلم استمساكًا بفلسفة الإسلام في الحرية كفريضة إلهية، وواجب شرعي، وضرورة إنسانية يمارسها إنسانٌ مستخلَف لله ﷻ في إطار بنودِ عقد وعهد الاستخلاف.

حقوق الإنسان من منظور إسلامي

وقياسًا على ذلك، تكون الرؤية الإسلامية لكل ما تعارف الناس في الحضارات الأخرى على وضعه في قائمة "حقوق الإنسان":

• الحفاظ على "الحياة" ليس مجرد "حقٍّ"، وإنما هو فريضة إلهية وتكليف شرعي واجب، ولذلك يأثم المفرّط في الحياة حتى ولو تم التفريط بالاختيار؛ انتحارًا كان هذا التفريط أو قعودًا عن الجهاد في سبيل مقومات الحياة.

• و"العلم" ليس مجرد "حقٍّ"، وإنما هو فريضة على كل مسلم ومسلمة، يأثم الذي يختار الجهل عليه، وفي بعض التخصصات تصل فرضيته إلى مرتبة الفريضة الكفائية -الاجتماعية- فتأثم الأمة جمعاء إن هي فرّطت فيها حتى ولو كان التفريط طواعية واختيارًا.

• والمشاركة في "العمل العام" ليست مجرد "حقٍّ"، وإنما هي فريضة تطبيقية لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي فيها جماع تكاليف المشاركة في العمل العام.

ولقد أفردت الحضارة الإسلامية المباحث المستقلة والمطولة في هذه الضرورات؛ من مثل الضرورات الخمس وهي: الحفاظ على الدين، والنفس، والعقل، والنسب والعرض، والمال، وذلك قبل قرون عديدة من المواثيق والإعلانات التي صاغها الآخرون حولها أو حول بعضها كمجرد "حقوق".

لكن الكشف عن هذه الحقيقة يبقى منقوصًا إذا لم ينهض العقل المسلم بصياغة هذه المبادئ والمعالم، في مواثيق مفصلة تقدم الضمانات التي قنّنها الإسلام للإنسان المسلم، ولمطلق الإنسان في سائر ميادين الحياة المعاصرة التي بلغت في التركب والتشعب والتعقيد ما لم تبلغه الحياة الاجتماعية في سالف العصور.

إن العقل المسلم والحركة الإسلامية مُواجهَان بالعديد من التحديات في هذا الميدان.

ما هي "الأشباه والنظائر"؟ وما هي "الفروق" بين فلسفة الإسلام وفلسفات الحضارات الأخرى في "حقوق الإنسان"؟ وأين "الوثائق والإعلانات" التي تصوغ موقف الإسلام في هذه القضية بالتفصيل المعاصر والتقنين الحديث، حتى يرى الإنسان المعاصر في هذا الجانب من جوانب الإسلام، السياج الأوفى بحفظ ما له من ضرورات وحاجيات؟

وأخيرًا -وهذا هو الأهم- كيف ومتى سنطبق أحكام الإسلام وفرائضه هذه في الواقع الإسلامي الذي نعيش فيه، وذلك حتى تزول المفارقة الصارخة بين ما ضمنه الإسلام للإنسان من كرامة وتكريم، وبين الواقع الظالم والبائس الذي يعيش فيه هذا الإنسان؟!

خَلْق واحد
وتعددية في المخلوقات

- أرض واحدة وعوالم عديدة
- ماء واحد وأصناف متعددة
- السببية والأسباب في الخلق الإلهي
- تعدد الأسباب سنة إلهية
- قِدم العالم وحدوثه

إذا كانت "كلمة الله" هي "خَلْقه"، فإن التعددية في هذا الخلق، هي عوالم لا يدري إحصاءها ولا مداها إلا الله ﷻ، بل لو أن أشجار الكون تحولت أغصانها إلى أقلام، وبحار الوجود تحولت إلى مداد لهذه الأقلام، واستدام الإمداد لهذه البحار بالمداد، لما استطاعت هذه الأقلام أن تحصي ما في خلق الله من تعدد وتنوع وتكاثر واختلاف.

خَلْق واحد وتعددية في المخلوقات

يتحدث القرآن الكريم عن الكون -بعوالمه المختلفة- باعتباره "خلق الله": ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(لقمان:١٠-١١)، فهذا الكون، خلقٌ واحدٌ لخالق واحدٍ.

لكن عوالم هذ الخلق الواحد لا يعلم عددها إلا الله ﷻ، بل إن التعددية والتمايز والاختلاف هي عوالم وآيات إلهية تتنوع إليها وتتمايز فيها كل وحدة من وحدات هذه المخلوقات.

فكل صنف من أصناف الأحياء المخلوقة يتنوع ويتعدد إلى أمم وجماعات، فتقوم التعددية في إطار هذا النوع من الأحياء، كما قامت التعددية في إطار الخلق الحي الذي خلقه الله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام:٣٨). وهذه الأرض التي خلقها الله ﷻ وسوّاها، فيها ألوان وألوان من التعددية والتنوع والتمايز والاختلاف، فهي سبع أراضين: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(الطلاق:١٢).

أرض واحدة وعوالم عديدة

وفي هذه الأرض تنوع وتعدد لا يعلم عدده إلا الله؛ تنوع في الجبال الرواسي والأوتاد التي تحفظها أن تميد، وتنوع في الأنهار -المالحة والعذبة- تنوع بواسطة البرازخ التي تخالف وتمايز مياه كل بحر من البحار ونهر من الأنهار، وتنوع في طبائع قطع الأرض المتجاورات، وتنوع في الثمرات التي تثمرها ذات الأرض الواحدة التي خلقها الله ﷻ... عالم، بل عوالم من التعددية والتنوع والاختلاف، التي لم يحص العلم الإنساني أعدادها في إطار هذه الأرض: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الرعد:٣)، ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعد:٤)، ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(النحل:١٣). ففي هذه الأرض الواحدة عوالم عديدة من التعدد العجيب. "فيها قطع يجاور بعضها بعضًا، وهي مختلف التربة مع ذلك، بعضها قاحل وبعضها خصب، وإن اتحدت التربة ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب، وفيها زرع يحصد ونخيل مثمر، وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنها تسقى بماء واحد، يختلف طعمها... وعلى سطح هذه الأرض خلق الله ﷻ كثيرًا من أنواع الحيوان والنبات والجماد، وجعل في جوفها كثيرًا من المعادن المختلفة الألوان والأشكال والخواص. وإن في

هذه العجائب لدلائل واضحة على قدرة الله ﷻ لمن له عقل يفكر به".[١]

ومثْل الأرض -في التعددية والتنوع بإطار الوحدة- جاء خلق الله ﷻ للسماء، فهي سبع سموات. وفيها ما لا يعلم عدده إلا الله من عوالم الكواكب والنجوم المجرات: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٩)، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٦)، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت:١٢).

وبالشمس والقمر تعدد المنازل والمدارات، والمشارق والمغارب، والليل والنهار، بالنسبة لكل موقع على سطح الأرض وفي كل لحظة من اللحظات: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۞ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٣٧-٤٠)، ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۞ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۞ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٤-٦)، وعوالم من التعددية والتنوع والاختلاف في إطار السماء التي خلقها الله ﷻ.

ماء واحد وأصناف متعددة

وهذا الماء الذي أنزله الله من السماء، منه العذب السائغ شرابه، ومنه الملح الأجاج، ومنه البحار والأنهار وما سلكه الله ﷻ في الأرض ليتفجر

---

[١] المنتخب في تفسير القرآن، ص:٣٥٣-٣٨٦. وضع "المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية"، طبعة القاهرة، ١٩٨٦م.

عيونًا وينابيع، مع التنوع الذي يدركه علم الإنسان في الطعوم والخصائص ودرجات الحرارة والمكونات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(الزمر:٢١)، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(فاطر:١٢)، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾(الفرقان:٥٣).

ومن هذا الماء الواحد تخرج عوالم وألوان وأصناف متعددة ومتنوعة ومتمايزة ومختلفة من الثمرات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(فاطر:٢٧)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٨)، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾(طه:٥٣)، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾(طه:٥٤).. "فالله ﷻ أنزل من السماء ماء فأخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها، منها الأحمر والأصفر والحلو والمر والطيب والخبيث، ومن الجبال جبال ذوو طرائق وخطوط بيض وحمر، مختلف بالشدة والضعف، ومن الناس والدواب والإبل والبقر والغنم مختلف ألوانه كذلك في الشكل والحجم واللون.. ثمرات مختلفات الألوان، يروي شجرها ماء واحد، وجبال من ألوان مختلفة يرجع أصلها إلى مادة واحدة.

وهكذا سنة الله واحدة، لأن الأصل واحد والفروع مختلفة متباينة".[1]

وهذه الرياح التي خلقها الله ﷻ هي الأخرى عوالم من التنوع والتميز والتعددية والاختلاف منها ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾(آل عمران:١١٧)؛ أي برد شديد أو سموم حارة، ومنها ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(يونس:٢٢)، وأخرى ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾(يونس:٢٢)؛ أي شديدة الهبوب والتدمير، وقد تأتي ﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾(الإسراء:٦٩)؛ أي عاصفًا شديدًا مهلكًا يقصف الأشجار، وكذلك ﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾(ص:٣٦)؛ أي لينة منقادة، ومنها ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾(الذاريات:٤١)؛ المهلكة لمن ولما أصابته، وفيها ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقة:٦)؛ باردة لها صوت شديدة مزعج.. ومن أصنافها ﴿الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(الحجر:٢٢)؛ للنبتات حاملة لقاح التذكير إلى الإناث، ومنها ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾(الروم:٣٧)، بالمطر؛ تلك التي تثير السحاب الحامل للماء ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(الروم:٤٨). عالم من التعددية والتنوع، ذلك الخلق الواحد الذي أبدعه بديع السموات والأرض ﷻ.

السببية والأسباب في الخلق الإلهي

وإذا كانت "كلمة الله" هي "خَلْقه"، فإن التعددية والتنوع في هذا الخلق، هي عوالم لا يدري إحصاءها ولا مداها إلا الله ﷻ، بل لو أن أشجار الكون تحولت أغصانها إلى أقلام، وبحار الوجود تحولت إلى مداد لهذه الأقلام، واستدام الإمداد لهذه البحار بالمداد، لما استطاعت هذه الأقلام

[1] في ظلال القرآن، ج:٥، ص:٢٩٤٢.

أن تحصي ما في خلق الله من تعدد وتنوع وتكاثر واختلاف: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩).

وهذا الخلق الواحد الذي أبدعه الخالق الواحد الأحد، قد أودعه خالقه وبث فيه العديد من الأسباب الفاعلة التي تفعل فعل الضرورات في المسبَّبات الناتجة عن هذه الأسباب، وذلك دون أن يكون هناك -في الرؤية الإسلامية- أيّ تناقض بين كون الخالق ﷻ -وهو السبب الأول لكل الأسباب والمسببات- وبين وجود وعمل جميع الأسباب في جميع المسبَّبات.

فنحن -في قضية السببية والأسباب المودعة والمبثوثة في الخلق الإلهي- لا نجد أنفسنا إزاء أي تعارض أو تناقض بين الإيمان بواحدية السبب الأول في الخلق، وبين تعدد الأسباب الفاعلة في المسبَّبات، فهي فلسفة لم يختلف فيها مسلم. حتى حجة الإسلام الغزالي الذي توهم ويتوهم البعض إنكاره لعمل الأسباب في المسبَّبات، فإننا نجده يقول: "إن الأسباب والمسببات يتأدى بعضها إلى بعض في الدنيا بترتيب مسبب الأسباب. والله تعالى غير عاجز عن الإشباع من غير أكل، والإرواء من غير شرب، والإنشاء من غير مصاحبة وقاع، والإنماء من غير رضاع، ولكنه رتب الأسباب والمسببات، ولذلك أمر وحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون في العلم".[1]

---

[1] المضنون به على غير أهله، ص:٣١٥-٣١٦، ضمن مجموعة "القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي".

تعدد الأسباب سنة إلهية

فمسبب الأسباب قد شاءت حكمته أن تتعدد الأسباب الفاعلة في خلقه، وأن تترتب أفعاله على هذه الأسباب والقوى التي أودعها وبثها في هذا الخلق، جاعلاً ذلك سنة من السنن وقانونًا من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل، حتى ليقول ولي الله الدهلوي (١١١٠-١١٧٦هـ) في شرح الآية الكريمة ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب:٦٢): "اعلم أن بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم بوجه من وجوه الترتب، شهد بذلك النقل والعقل؛ قال رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب". وسأله عبد الله بن سلام: ما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال: "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت".[1]

فالخلق واحد، أودع الخالق فيه العديد من الأسباب والقوى الفاعلة في المسببات. فتعددية الأسباب في إطار وحدة الخلق وواحدية خالق الأسباب والسبب الأول فيها معلَم من معالم التصور الإسلامي للكون الذي يعيش فيه الإنسان، له آثاره على قضية التعددية في ثقافة هذا الإنسان. وإذا كان "العالم" واحدًا، فإن هناك تعددية في زاوية الرؤية لهذا العالم باعتبار موقعه من "القِدم" ومن "الحدوث" تفضي إلى تعددية في الحكم على هذا "العالم" الواحد، باعتبار حظه من "القدم" أو "الحدوث"، بل إن هذه

[1] حجة الله البالغة، ج:١، ص:١٧.

التعددية في زاوية الرؤية قد حلت -في الفلسفة الإسلامية- إشكاليات لم تجد لها حلولاً -تبعد الثنائيات المتناقضة- في الفلسفات غير الإسلامية.

قِدم العالم وحدوثه

فالذين قالوا بقِدم العالم نظروا إليه من زاوية شبهه بالقديم وباعتبار الأجرام العلوية التي لا يعتريها الكون والفساد، بينما الذين قالوا بحدوثه قد نظروا إليه من زاوية شبهه بالمحدثات. فالتعددية إنما هي في زاوية الرؤية، والحقيقة أن هذا العالم ليس خالصًا في القِدم ولا خالصًا في الحدوث. وبعبارة أبي سليمان السجستاني (٣٩١هـ) فلقد "عرض الاختلاف بين الناظرين في العالم، أقديم هو أم محدث لأمر لطيف؛ وذلك أن الناظر إلى المركز وجد الشيء الفاسد، فحكم أن الحدوث والقدم قد تعاقبا عليه قدم بالزمان، وحدوث أيضًا بالزمان، فرأى أن الحكم بأنه محدَث واجب. والناظر إلى الأجرام العلوية وجد ما لا يكون ولا يفسد ولا يعتريه دثور، فحكم بأنه قديم. فكان النظران صحيحين من الجهتين المختلفتين".[1]

ولعل عبارة ابن رشد هي الأدق والأبلغ، تلك التي يقول فيها: "وأما مسألة قدم العالَم أو حدوثه، فإن الاختلاف فيها عندي -بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين- يكاد أن يكون راجعًا للاختلاف في التسمية. وذلك أنهم اتفقوا على أن ها هنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان، وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة.

فأما الطرف الأول فهو موجود وُجد من شيء غيره وعن شيء؛ أعني عن سبب فاعل، ومن مادة، والزمان متقدم عليه؛ أعني على وجوده.

---

[1] المقابسات، ص:٣٠١-٣٠٢.

وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس، وهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع على تسميتها محدَثة. وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء، ولا تقدمه زمان، وهذا أيضًا اتفق الجميع على تسميته قديمًا وهو الله تبارك وتعالى.وأما الصنف من الموجودات الذي بين هذين الطرفين، فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدّمه زمان، ولكنه موجود عن شيء؛ أعني عن فاعل. وهذا هو العالَم بأسره، وبَيّنٌ أنه قد أخذ شبهًا من الوجود الكائن الحقيقي ومن الوجود القديم. فمَن غلَّب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدثات، سماه قديمًا، ومَن غلَّب عليه ما فيه من شبه المُحدَث سماه محدثًا، وهو في الحقيقة ليس محدثًا حقيقيًا ولا قديمًا حقيقيًا، فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة، والقديم الحقيقي ليس له علة".[1]

فالعالم واحد، والتعددية التي صارت في قضية قدمه أو حدوثه، إنما جاءت من تعدد زوايا الرؤية لهذا العالم. وهي تعددية تفسح لهذا المنهاج مكانًا في تصورات المسلم للكون، ومن ثم في ثقافته التي ترى التعددية والتنوع والاختلاف دائمًا وأبدًا في إطار الجامع الموحِّد لِسِمات وقسمات هذا الاختلاف.

[1] فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ص:٤٠-٤٢.

سنة التدرج في الإصلاح

- عصر النبوة وسنة التدرج
- التاريخ الإسلامي وسنة التدرج
- مرتكزات أساسية في الدعوة

شاء الله ﷻ أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة في مسيرة الشرائع السماوية التي جعلها سبحانه "لطفًا" لهداية الإنسان. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم ومع نمو المستوى العقلي لأمم هذه الرسالات.

سنة التدرج في الإصلاح

التدرّج سُنّة من سنن الله ﷻ، وقانون من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل. هو سنة من سنن الخلق الإلهي للكون والعالم بسماواته وأراضيه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(الأعراف:٥٤). فتدرَّج خلقُ الله لها في ستة أيام -من أيامه سبحانه- وهو القادر على أن يقول لها في جزء من اللحظة كن فتكون. والتدرج سنة من سنن الله في خلقه للإنسان الأول آدم عليه السلام. وبعد المراحل الخمسة (التراب فالماء فالطين فالحمأ المسنون فالصلصال) كانت مرحلة النفخ الإلهي في "مادة" هذا الخلق من "روح الله". فكان أن استوى هذا المخلوق "إنسانًا"، هو آدم عليه السلام. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾(آل عمران:٥٩) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السجدة:٧)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:٢٨-٢٩).

وبسنة التدرج عبر الأطوار والمراحل كان خلق الله وتكوينه لكل مخلوق من ذرية آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ

اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٢-١٤). فكان التدرج سنة كونية مطردة في خلق الله للعالم وللإنسان الأول ولكل إنسان. كذلك شاء الله ﷻ أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة في مسيرة الشرائع السماوية التي جعلها سبحانه "لطفًا" لهداية الإنسان. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم ومع نمو المستوى العقلي لأمم هذه الرسالات.

عصر النبوة وسنة التدرج

وحتى في الشريعة الإسلامية كان التدرج سنة مطردة ومرعية. فهذه الشريعة الخاتمة والخالدة قد بدأت -في المرحلة المكية التي استغرقت ثلاثة عشر عامًا- بإعادة صياغة الإنسان والجماعة المؤمنة والجيل الفريد وفق معالمها ومنظومة قيمها، أي بدأت بالدرجة الأولى في سُلّم التغيير الكبير والجذري والشامل والعميق.. تغيير النفس الإنسانية كي تصبح قادرة على تغيير الواقع وفق المنظومة القيمية الإيمانية ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). وكذلك كان الحال "التدرج" في المرحلة المدنية التي استغرقت عشر سنوات. فامتلاك الجماعة المؤمنة (الأمة) للحضارة وأركانها، لم يجعل "الطفرة" تحل محل "التدرج"، ولا "الثورة" تحل محل "الإصلاح" في استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام. فمع تدرج الوحي "المنجّم" واكب التشريع والتطبيق للتشريع تطور التغيير المتدرج للإنسان الذي سيقيم كامل الشريعة، وللواقع الذي لابد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة.

فنظام المواريث طبّق في السنة الثالثة للهجرة، أي بعد ستة عشر عامًا

من بدء الوحي. والنظام الإسلامي للأسرة من الزواج والطلاق والنفقة وسائر أحكامها اكتمل تشريعه وتطبيقه في السنة السابعة للهجرة، أي عبر عشرين عامًا من بدء الوحي. والقوانين الجنائية تدرج تشريعها وتطبيقها مادة مادة، حتى اكتملت في السنة الثامنة للهجرة، أي عبر واحد وعشرين عامًا من عمر الوحي الخاتم. وتدرجت أحكام الخمر من الذم لها والتحذير منها إلى التحريم القاطع والنهائي لها في السنة الثامنة للهجرة، أي في العام الواحد والعشرين من بدء الوحي. وكان تحريم الربا في السنة التاسعة للهجرة، وذلك بعد أن تخلّق في الواقع الإسلامي للمجتمع الجديد والأمة الوليدة اقتصاد إسلامي بديل حلّ محل الاقتصاد الجاهلي القديم. وعند ذلك أصبح تطبيق الفلسفة الجديدة للنظام اللاربوي ومعاملاته أمرًا ممكنًا.[1]

بل إن هذا التدرج قد كان سنة مرعية ومطردة أيضًا في الشعائر والعبادات -بما فيها الكثير من أركان الإسلام- وليس فقط في أحكام الواقع والمعاملات. فالصلاة بصورتها التامة والحالية اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج في السنة الثانية قبل الهجرة، الحادية عشرة من البعثة. والصوم فرض بالمدينة وكذلك الزكاة والحج إلى بيت الله الحرام.

وإذا كان الله ﷻ قد خلق كل شيء بقدَر وقدَّره تقديرًا، وجعل السنن والقوانين حاكمة لكل عوالم الخلق والوجود والاجتماع الديني والإنساني ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الفتح:٢٣)، فلقد شاء سبحانه أن تكون سنة التدرج حاكمة في كل ميادين التغيير.

---

[1] القانون الإسلامي، لأبي الأعلى المودودي، ترجمة: محمد عاصم الحداد، بيروت، ١٩٧٥م، ص:٥١-٥٢.

فالحديث عن "الطفرات" و"الثورات" و"الانقلابات الفجائية" لا يعدو أن يكون حديثًا عن "هبّات" مفارقة لسنن التدرج، تقف عند حدود الغضب والهياج أو الأماني والأحلام. فحتى الجراحات لا تتم إلا بعد تدرج المرض وتطوره ولا تؤتي ثمارها في الشفاء إلا بعد تدرج في العلاج

وإذا كنا قد أشرنا إلى سنن التدرج في الإصلاح الديني، فإن لرسول الله ﷺ حديثًا أراه من جوامع الكلم التي عبرت عن فلسفة السنّة الحاكمة لكل ألوان التغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني عبر التاريخ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. فالتغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني هو "دورات متواليات" وليس خطا مستقيمًا، صاعدًا نحو الصلاح أو هابطًا نحو الفساد.. هو "دورات" يتعاقب فيها العدل والجور والصلاح والفساد، مع التدرج والتطور في هذا التغيير نحو الصلاح أو الفساد.

وفي هذا الحديث النبوي الشريف الذي جاء نبوءة حاكمة لكل ألوان التغير وعوالمه في الاجتماع الإنساني يقول رسول الله ﷺ: "لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله حتى يولَد في العدل من لا يعرف غيره" (رواه الإمام أحمد).

فدورات العدل والجور وحقب الصلاح والفساد هي السنة التي تحكم سير الاجتماع الإنساني. والتغيير في هذه الدورات محكوم بسنة التدرج، فبقدر الجور والفساد الذي يظهر وينمو يكون قدر العدل والصلاح الذي يتوارى، وكذلك الحال في الدورات العكسية، حتى لكأننا أمام التدرج في ظاهرتي الشروق والغروب للشمس مثلاً دونما "طفرة" أو "انقلاب

فجائي". بل إن ما يحسبه البعض "طفرة" أو "فجأة" إنما هي لحظة في سلك التدرج وتوالي التطور والتغيير.

التاريخ الإسلامي وسنة التدرج

والذين يفقهون حقيقة التغيرات التي أصابت الاجتماع الإسلامي بعد عصر النبوة، سواء منها التغيرات السلبية أو الإيجابية، والفساد الطارئ منها أو الإصلاح الذي غالَب الفسادَ وتدافع معه سيجدون المصداق والتصديق لهذه السنة -سنة التدرج في التغيير- التي تحدث عنها هذا الحديث الشريف لرسول الله ﷺ. فالتغيرات التي أصابت نموذج العصر النبوي والعصر الراشدي، والتي جاءت من وافد مواريث البلاد المفتوحة وثقافات الشعوب التي دخلت في إطار الرعية والأمة بأسرع مما غيرت نفوسها قيم الإسلام، والتي جاءت أيضًا من النفوس التي تغيرت عندما ابتعدت عن وهج النور الرسالي للعهد النبوي.. هذه التغيرات التي أصابت قيم ونظم الشورى والعدل الاجتماعي أكثر من سواها وقبل سواها لم تحدث فجأة ولا طفرة، وإنما حكمتها سنة التدرج في الاتجاه نحو الجور والظلم والفساد.

وكذلك الحال مع التغيرات التي جسدتها حقبة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز ﷺ والتي أحلّت العدل محل الجور، والصلاح محل الفساد، وردت المظالم إلى أصحابها، والتي مثلت ملحمة من ملاحم التجديد والتغيير العادل في الاجتماع الإسلامي. هذه التغيرات العادلة والصالحة لم تتم فجأة ولا طفرة، وإنما تدرجت عندما بدأها الخليفة بنفسه فزوجِه فأمراءِ بني أمية وصولاً إلى كل الذين اغتصبوا ما

ليس لهم من مال الأمة وبيت مال المسلمين.

ولقد عبر عمر بن عبد العزيز عن تلك التغييرات التي تدرجت بالاجتماع الإسلامي نحو الجور والمظالم والتي ورثها الخليفة عن الذين سبقوه من خلفاء بن أمية، عبّر عنها الخليفة العادل عندما وصف الواقع الاجتماعي في ميدان الثروات والأموال، والتغييرات المتدرجة التي نقلته من العدل إلى الجور، فقال: "إن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ رحمة -لم يبعثه عذابًا- إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك للناس نهرًا شربهم فيه سواء. ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من النهر نهرًا. ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم كما كان عليه".[١]

وكما تمت التغييرات السلبية من العدل إلى الجور بالتدرج، بدأ عمر بن عبد العزيز ملحمة التغيير من الجور والظلم إلى العدل والصلاح بالتدرج أيضًا، فبدأ بنفسه عندما جعلها القدوة الصالحة والعادلة، وعندما رد جميع المظالم التي ورثها عن أسلافه إلى بيت مال المسلمين وقال وهو يرد "إقطاع فَدَك": "إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه".[٢]

لقد جعل عمر بن عبد العزيز من عامَي خلافته سلسلة متدرجة

---

[١] كتاب الأغاني، للأصفهاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الشعب، القاهرة، ٩/٣٣٧٥، ٣٣٧٦.

[٢] فتوح البلدان، للبلاذري القاهرة، ١٣١٩هـ، ص:٢٩؛ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، القاهرة، ١٣٠٣هـ، ص:٢٤.

ومتصلة من "رد المظالم" انتقلت بالاجتماع الإسلامي من الجور إلى العدل ومن الفساد إلى الصلاح حتى لقد قالوا: "إنه ما زال يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات".[١] كما عبر عن وعيه بضرورة التدرج في هذا التغيير الإصلاحي رغم شوقه للعدل وحماسه الشديد للإصلاح واستعداده لأن يبذل روحه في سبيل هذا الإصلاح. فمع قوله: "لو كان كل بدعة يميتها الله على يديّ وكل سُنّة ينعشها الله على يديّ ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيرًا".[٢] إلا أن حماسه للإصلاح واستعداده للفداء والاستشهاد في سبيله لم يدفعه إلى محاولة إتمامه فجأة وطفرة، وإنما سلك إليه سبيل التدرج ودافع عن هذا المنهاج في التغيير في حواره مع ابنه عبد الملك الذي كان يتعجل التغيير والإصلاح فقال لأبيه: "يا أبت، ما لك لا تنفذ في الأمور؟! فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور!"، فرد عليه عمر بن عبد العزيز، بحكمة رجل الدولة وخبير الإصلاح والفقيه في سنة التغيير التدريجي قائلاً: "لا تعجل يا بني! فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدَعوه وتكونَ فتنة".[٣]

فلقد كان هذا الراشد العادل واعيًا بسنة الله في التدرج بالإصلاح والتغيير العادل وعارفًا بضرورات التعايش مؤقتًا مع مقادير من الجور والظلم والفساد حتى يحين الحين فيحل بالتغيير التدريجي محلها بدائل

---

[١] كتاب الطبقات، لابن سعد، دار التحرير، القاهرة، ٢٥١/٥.

[٢] مر بن عبد العزيز: ضمير الأمة وخامس الراشـــدين، د. محمد عمارة، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٥م، ص:٢٢٦.

[٣] العقد الفريد، لابن عبد ربه، القاهرة، ١٩٢٨م، ٤٠/٤.

العدل والإصلاح، بل لقد تحدث صراحة عن هذه الحقيقة من حقائق سنة التغيير، فقال: "إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمرًا من العدل فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا".[1] فهو هنا يتجاوز هذا المستوى إلى الحديث عن مستوى آخر، وهو "تغليف" العدل بشيء من "طمع الدنيا" كي تتقبله النفوس التي "تغلفت" بقيم الاجتماع الفاسد والجائر الذي طرأ على حياة الناس.

وتلك -لعمري- عبقرية في فقه التدرج بالتغيير جسدتها تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز، وعبّرت عنها كلماته الراشدة الحكيمة في فلسفة هذا المنهاج، وجسدتها تجربته العملية التي لا زالت مضيئة في تاريخ الإصلاح الإسلامي، تستحث خطا المصلحين على هذا الطريق.

مرتكزات أساسية في الدعوة

تلك هي سنة التدرج كما تجلت في السنن الإلهية الكونية في خلق العالم وخلق الإنسان، والسنن الإلهية التاريخية في الوحي بالشرائع السماوية الهادية للإنسان، والتطبيقات النبوية لسنة التدرج هذه في الاجتماع الإسلامي بالدولة الإسلامية الأولى، والإصلاح الإسلامي الراشد كما تمثل في تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز ﷺ.

إن إعمال هذه السنة الإلهية الكونية في ميدان الإصلاح والتغيير للواقع الإسلامي الراهن الذي أفسد التغريب الكثير من نواحي فكره وثقافته وإعلامه ومنظومة قيمه لا بد وأن يعني سلوك طريق التدرج في هذا التغيير المنشود. فبقدر ما تتكون الكتيبة التي تبدع البدائل الإسلامية المحكومة

---

[1] المصدر السابق، ٢/٢٣٢.

بالقيم الإسلامية في الثقافة والإعلام، وبقدر ما تطل هذه البدائل الإسلامية على الواقع المعيش، بقدر ما تكون بدايات التغيير للواقع الاجتماعي للثقافة والإعلام وتوجه هذا الواقع نحو الانضباط بمنظومة القيم الإسلامية. وبقدر التغيرات الجزئية والتدريجية التي يحدثها الإبداع الثقافي والإعلامي الإسلامي في الواقع الاجتماعي بقدر ما تتزايد المساحات المحكومة بالقيم الإسلامية في الإبداع الفكري والثقافي والمادة الإعلامية.

وعلينا أن ندرك في صراحة ووضوح أن سنة التدرج هذه إنما تعني مصاحبة الصلاح الإسلامي الجديد حينا من الدهر لكثير أو قليل من الفساد التغريبي الوافد والموروث. وأن نتذكر جيدًا ودائمًا منهاج الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز في التدرج الإصلاحي والإصلاح المتدرج الذي لم يقف فقط عند التعايش مؤقتًا مع مقادير من الجور الموروث، وإنما سلك سبيل "تغليف" العدل ببعض طمع الشهوات في زينة الحياة الدنيا وصولاً إلى إحلال العدل الخالص محل الجور والطمع والشهوات.

تلك هي سنة التدرج، وهذا هو قانونها الحاكم في كل عوالم الخلق والإصلاح والتغيير، وذلك هو منهاجها في الخروج بأمتنا من واقعها الفكري والثقافي والإعلامي الراهن إلى حيث الإصلاح الإسلامي المنشود، مع ضرورة:

• صدق النية في الإصلاح الكامل قدر الطاقات والإمكانات وليس مجرد "الترقيع" والاكتفاء بسياسة مجاورة الصلاح للفساد والتعايش بينهما بدعوى وضع النماذج المختلفة أمام الأذواق المختلفة. فإصلاح الأذواق هو هدف من الأهداف الرئيسية للإصلاح. وعلينا أن نميز بين صدق النوايا في التدرج الإصلاحي وبين النوايا الكاذبة التي تتحدث عن "التدرج" بينما

يضع أصحابها النموذج الإسلامي في "الأدراج". فبالنية الصالحة وبالعزم الصادق وبالتخطيط الراشد والتنفيذ الواعي وفق سنة التدرج تتحقق آمال المصلحين في الإصلاح.

• وعدم الاكتفاء بالنوايا الصادقة في الإصلاح الكامل، وإنما العمل المتواصل على تقديم النماذج الثقافية والإعلامية الصالحة (تقديم المثال الإسلامي)، وتنمية مساحة هذا "المثال" باستمرار ليتوارى مع نموه النموذجُ الفاسد والسلبي في الثقافة والإعلام.

• وتقدير الضرورات بقدرها. وذلك حتى لا تنفلت معايير الضرورات في التعايش مع نماذج من الثقافة السلبية. والحرص على أن تكون هناك موازنات بين السيئ والأسوأ والأقل سوءًا في المادة التي يتم التعايش معها مؤقتًا.

• وكما يجب إعمال قاعدة "سد الذرائع" إلى الأسوأ فإن بالإمكان إعمال قاعدة "فتح الذرائع" إلى الأقل سوءًا إذا أفضى التعايش المؤقت معه إلى الصلاح الأكثر والأعم.

• مع الحرص على أن تكون هناك منابر ثقافية وإعلامية خالصة الإسلامية تمثل مراكز للتوجيه والتعريف بالنموذج الإسلامي ودائمة الإشعاع على سائر الساحة الثقافية والفضاء الإعلامي. فضرب الأمثال وانعطاف قطاعات واسعة من الجماهير نحو هذه النماذج هو من أفعل الوسائل في تنمية الإصلاح بميادين الثقافة والإعلام.

المسلم والجمال

- الدين ومنبع الإبداع الجمالي
- الجمال المسَّخر للإنسان
- النظر في الجمال هو امتثال لأوامر الله
- الجمال المؤدي إلى الكمال
- الفطرة تمثِّل التجمّل والتزين
- الزينة التي يطلبها الإسلام
- الاستشعار بآيات الجمال
- الاستمتاع بجماليات الحياة

إن الجمال والزينة هي آيات الله، أبدعها وبثها في هذا الكون، وأمر الإنسان أن ينظر فيها، فالنظر في هذا الجمال، والاستقبال لآيات الزينة، وفتح قنوات الإحساس الإنساني على صنع الله ﷻ هو امتثال لأمره.

المسلم والجمال

إذا كانت "الحضارة" هي جماع إبداع الأمة في عالمي "الفكر" و"الأشياء"، أي في "الثقافة" التي تهذّب الإنسان وترتقي به، وفي "التمدن" الذي يجسد ثمرات الفكر -في التطبيق والتقنية- أشياء يستمتع بها الإنسان المتحضر.. إذا كانت هذه هي "الحضارة"، فإنها كإبداع بشري في المنظور الإسلامي وفي التجربة الإسلامية، وثيقة الصلة بدين الإسلام كوضع إلهي نزل به الوحي على قلب رسول الله ﷺ.

ففي التجربة الحضارية الإسلامية، كان "الدين" هو الطاقة التي أثمرت -ضمن ثمراتها؛ توحيد الأمة وقيام الدولة والإبداع في كل ميادين العلوم والفنون والآداب- شرعية وعقلية وتجريبية، كما كان الدافع للتفتح على المواريث القديمة والحديثة للحضارة الأخرى، وإحيائها وغربلتها وعرضها على معايير الإسلام، واستلهام المتسق منها مع هذه المعايير، لتصبح جزءًا من نسيج هذه الحضارة الإسلامية التي وإن كانت إبداعًا بشريًّا، إلا أنها قد اصطبغت بصبغة الإسلام (الدين)، كما كانت ثمرة للطاقة التي مثلها وأحدثها عندما تجسد في واقع المسلمين. تلك هي العروة الوثقى بين دين الإسلام وبين حضارته، بما فيها من إبداع شمل مختلف الميادين؛ الشرعية، والعقلية، والتجريبية، والجمالية.

الدين ومنبع الإبداع الجمالي

إننا لو تأملنا في مكان "الهجرة" في دعوة الإسلام ودولته وأمته، لرأيناها أكثر وأكبر من إنجاز لإنقاذ الدعوة من حصار "الشرك المكي"، لأن الهجرة في حياة هذه الدعوة، لم تقف عند الهجرة من مكة إلى المدينة -ومن قبلها الحبشة- وإنما كانت أيضًا، هجرة من "البداوة" إلى "الحضارة"، من "البادية" إلى "الحاضرة"، من حياة "الأعراب" التي تغلب عليها الغلظة ويسود فيها الجفاء، إلى حياة "العرب" الذين استقروا في "القرى"، فغدا بإمكانهم أن يقيموا "مدينة" و"حضارة" في هذه "القرى".. كانت إنجازًا حضاريًا، ينتقل بالجماعة البشرية من طور ترحال البداوة الذي يستحيل معه قيام "التراكم" في الإبداع الثقافي والتمدّني، إلى طور الاستقرار والحضور في "القرى" الحاضرة، الأمر الذي يتيح لإبداعات الإنسان أن "تتراكم"، فتعلو بناءًا حضاريًّا مناسبًا للجهد الإبداعي المبذول فيه. تلك هي "المكانة الحضارية" للهجرة في حياة دعوة الإسلام في عصر صدر الإسلام، وتلك هي بدايات خيوط العروة الوثقى بين الإسلام "الدين"؛ الوضع الإلهي، وبين الحضارة الإسلامية؛ الإبداع الإسلامي لأمة الإسلام.

وفي ضوء هذه "الحقيقة الحضارية" نفهم اصطفاء الله ﷻ "مكة" أم "القرى" وحاضرة الحواضر، مهبطًا للوحي بالدين الجديد، ونفهم مغزى كون "يثرب" المدينة وهي ثانية القرى والحواضر، هي دار الهجرة وعاصمة الدولة ومنارة الدعوة، بل نفهم سر استمساك القرى والحواضر الثلاث "المدينة" و"مكة" و"الطائف"، بالإسلام يوم ارتدّت عنه -أو عن وحدة دولته- البوادي بمن فيها من الأعراب، عندما زلزلت وفاة الرسول ﷺ

قلوب هؤلاء البدو الأعراب.. نفهم جميع ذلك في ضوء العلاقة العضوية بين هذا الدين وبين الإبداع الحضاري للإنسان الذي تديّن بهذا الدين.

بل ونفهم أن هذه العلاقة بين "الدين" وبين "الحضارة" -ومن ثم فـ"الحضارة" ليست خصيصة إسلامية- إنما هي سنة من سنن الله في كل الشرائع والرسالات. فكما اصطفى الله ﷻ حاضرة مكة، لتبدأ منها الدعوة قائلاً لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام:٩٢) أنبأنا في قرآنه الكريم، أن هذا الاصطفاء إنما كان اطرادًا لسنة إلهية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(القصص:٥٩). فأمّ القرى وحاضرة الحواضر، كانت دائمًا هي موطن الرسل والرسالات، ذلك للعلاقة العضوية بين "الدين" و"الحضارة" على امتداد تارخ الإسلام.

تلك هي بدايات الخيوط بين الإسلام (الدين) وبين الحضارة، وهي بدايات لا ترشحه كي يوحي بالتجهم إزاءها، ولا بمخاصمة إبداعاتها الجمالية بحال من الأحوال.

الجمال المسخَّر للإنسان

إن "الجمال" الذي يظن بعض من الناس مخاصمة الإسلام إياه، هو -إذا نحن تأملناه- بعض من آيات الله ﷻ التي أبدعها في هذا الكون وأودعها فيه، إنه بعض من صنع الله وإبداعه سبحانه، سوّاه وسخّره للإنسان، طالبًا من الإنسان أن ينظر فيه ويستجلي أسراره ويستقبل تأثيراته ويستمتع بمتاعه ويعتبر بعبرته: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ

دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:٩٩).

وأينما يمّم الإنسان بصره أو بصيرته أو عقله أو قلبه، فإنه واجد آيات الله التي خلقها "زينة" للوجود ودعاه إلى النظر فيها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾(الصافات:٦-٧).

فهذه "الزينة" التي هي آيات إبداع الله ﷻ هي "زينة-جمال"، يدعو الله الإنسان إلى النظر فيها، بل وكأنه يقول لنا، إن خلقها ليس "للحفظ" فقط ولا "للمنفعة" وحدها، وإنما "للزينة" التي أبدعها الله لينظر فيها الإنسان ويستمتع بما فيها من جمال. ومثال ذلك حديث القرآن الكريم عن آيات خلق الله التي أبدعها لنا في صورة "الحيوان" المسخّر للإنسان، فليست "المنفعة" المادية وحدها هي الغاية من هذا الخلق والتسخير، وإنما "الجمال" و"الزينة" أيضًا، غايات يتغياها الإنسان في هذا الخلق الذي خلقه الله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(النحل:٥-٨).[1]

---

[1] وفي الحديث الشريف عن الخيل: "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة وهي لرجل أجر، ولرجال ستر وجمال، وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل يتخذها -يعدها- في سبيل الله وأما التي هي له ستر وجمال فرجل يتخذها تكريمًا وتجملاً ولا ينسى حق بطونها وظهورها وعسرها ويسرها. أما الذي هي عليه وزر فرجل يتخذها بذخًا وأشرًا ورياء وبطرًا" (رواه مسلم والإمام أحمد).

النظر في الجمال هو امتثال لأوامر الله

إن هذا الجمال وتلك الزينة هي آيات الله، أبدعها وبثها في هذا الكون، وأمر الإنسان أن ينظر فيها، فالنظر في هذا الجمال، والاستقبال لآيات الزينة، وفتح قنوات الإحساس الإنساني على صنع الله، هو امتثال لأمر الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾(ق:٦). وهذا النظر في هذه الآية وغيرها من الآيات، هو سبيل من سبل الاستدلال على وجود الله ﷻ وعلى كمال قدرته وبديع صنعته. وما تعطيل النظر في آيات الجمال، إلا تعطيل للدليل على وجود الصانع المبدع لهذه الآيات.

فإن تنمية الإحساس الجمالي لدى الإنسان المؤمن، هو تنمية للملَكات والطاقات التي أنعم بها عليه الله ﷻ، وإن في استخدام هذه الملَكات، سبلا للاستمتاع بما خلق الله ﷻ في هذا الكون من آيات الزينة والجمال، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال:"إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" (رواه الترميذي).

الجمال المؤدي إلى الكمال

إذن، كان المسلم -بحكم إيمانه وإسلامه- مدعوًّا إلى التخلّق بأخلاق الله ليكن ربانيًّا، ومطلوب منه أن يسعى -قدر الطاقة ومع ملاحظة فوارق المطلق عن النسبي- كي يتحلى بمعاني أسماء الله الحسنى. فإن رسول الله ﷺ يعلّمنا أن "الجميل" هو من أسماء الله فيقول: "إن الله جميل يحب الجمال" (رواه مسلم). فالمسلم إذن، مدعو إلى الاتصال بالجمال الذي هو البهاء والحسن في الفعل وفي الخلُق، وإلى تنمية إحساسه بالجمال الذي

أودعه الله في الكون؛ جمال الصور وجمال المعاني على حد سواء،[١] وفي ذلك "كمال" للإنسان و"سعادة" له أيضًا. يقول الإمام الغزالي: "فإن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى، والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه، بقدر ما يتصور في حقه، ليقرب بها من الحق قربًا بالصفة لا بالمكان، لأن استعظام الصفة واستشرافها يتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الحلال والجمال، وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنًا، أو يبعث الشوق إلى القدر منه لا محالة. وبذلك يصير العبد ربانيًا، أي قريبًا من الرب تعالى".[٢]

الفطرة تمثّل التجمّل والتزين

ولأن هذا هو موقف المنهج الإسلامي من آيات الجمال والزينة المبثوثة في الكون من صفات الحسن والبهاء المتاحة للإنسان في هذه الحياة، كانت دعوة القرآن الكريم الناسَ إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد، أي إلى إقامة التلازم وعقد القران بين التزين وبين دعاء الله والمثول بين يديه، فكلاهما (التزيين والصلاة) شكر لله ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:٣١-٣٢). نلحظ أن هذه الآيات تدعو الإنسان وليس المسلمين وحدهم، وذلك تنبيهًا على أن هذا هو مقتضى الفطرة التي

---

[١] انظر تعريف "الجمال" في "لسان العرب"، لابن منظور.

[٢] المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص:٢٠-٢١.

فطر الله الناس عليها؛ طلب الزينة والجمال، وتصحيحًا للانحراف الذي جعل العبادة رهبانية تدير الظهر لصفات الحسن ومظاهر الجمال في هذه الحياة. إنه المنهج الإسلامي الذي يعيد الإنسان في هذه القضية وسواها، إلى "فطرته" والتي يمثل التجمل والتزين ملمحًا أصيلاً من ملامحها، وفي حديث عائشة رضى الله عنها، يقول رسول الله ﷺ: "عشر من الفطرة: قص الشارب، وقص الأظافر، وغسل البراجم، وإعفاء اللحية، والسواك والاستنشاق، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء[1]" (رواه النسائي).

وإذن، كان "المسجد" في العرف الإسلامي، هو مطلق مكان السجود، ولذلك كانت الأرض كلها مسجدًا لأبناء الإسلام. فإن اتخاذ الزينة هو فريضة إسلامية في الأوقات الخمسة التي يمثُل فيها المسلم -يوميًّا- بين يدي مولاه، أي إنها فريضة إسلامية في كل زمان -تقريبًا- وفي أي مكان.

وهذه الفريضة يتأكد التنبيه عليها في أيام وأماكن الاجتماع، كالجمع والأعياد.. وفي حديث رسول الله ﷺ: "من اغتسل -أو تطهر- فأحسن الطهور، ولبس من أحسن ثيابه، ومس ما كتب الله له من طيب أو دهن أهله ثم أتى الجمعة، فلم يلغ ولم يفرق بين اثنين، غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى" (رواه ابن ماجة).

الزينة التي يطلبها الإسلام

ولا يحسبن أحد أن "الزينة" التي يطلبها الإسلام ويأمر بها، مقصورة على الثياب الحسنة والطيب وحسن التجمل -فقط- عند المثول بين يدي الله في الصلاة، ذلك أن "الزينة" إذا كانت اسمًا جامعًا لكل شيء يُتزين

[1] انتقاص الماء: من معانيه؛ الاستنجاء.

به، فإن مصادر طلبِها ومواطن الإحساس بها، مبثوثة في كل آيات الجمال التي خلقها الله، وأبدعها وأودعها في سائر أنحاء هذا الوجود.

ولقد ميز الإسلام ما بين طلب الجمال والاستمتاع به عندما يحكمه الاقتصاد والاعتدال وعندما يكون شكرًا لأنعم واهب هذا الجمال، وبين "الكبر" الذي نهى عنه الإسلام وتوعد مقترفيه. فعندما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه ابن مسعود ﷺ: "لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر"، عند ذلك قال رجل: يا رسول الله إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهينًا وشراك نعلي جيدًا -وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه- أفمن الكبْر ذلك يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "لا، ذلك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبْر من سفه الحق وازدرى الناس" (رواه مسلم).

ولقد أباح الإسلام للمرأة أن "تتجمل للخُطّاب" إظهارًا لنعمة الجمال وطلبًا للزواج. وفي حديث الصحابية الجليلة سبيعة بنت الحارث الأسلمية رضي الله عنها، عندما توفي عنها زوجها سعد بن خولة، ووضعت حملها منه وبرئت من نفاسها "تجمّلت للخُطّاب"، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك -من بني عبد الدار- فقال لها: "مالي أراك متجمّلة، لعلك ترجين النكاح؟! إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. فذهبت سبيعة إلى رسول الله ﷺ وسألت عن ذلك -عن العدّة- وليس عن "التجمل للخُطّاب" فلم يكن ذلك موضع خلاف. قالت: فأفتاني رسول الله ﷺ بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي" (رواه مسلم).

ووجدنا القرآن الكريم يتحدث عن زينة الأرض وزخرفها كمهمّتين من مهام خلافة الإنسان عن الله في عمرانها، لن تنتهي هذه الخلافة بطيّ

صفحة هذه الحياة الدنيا، إلا إذا بلغ الإنسان الشأو في هذا السبيل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس:٢٤).

الاستشعار بآيات الجمال

ولقد كان منهج النبوة الذي تجسد في سلوك الرسول ﷺ في خاصة نفسه، ومع أهله، وفي تشريعه للناس.. كان هذا المنهج بصدد التربية الجمالية والسلوك الجمالي، البيان العملي والممارسة التطبيقية للبلاغ القرآني الذي شرع الله فيه منهج الإسلام في هذا الميدان. فهذا الرسول ﷺ الذي جاء رحمة للعالمين، كان النموزج الأرقى للإنسان الذي يستشعر كل آيات الجمال في خلق الله، ويلفت النظر بهذا السلوك الجمالي، ليغدو سنة متبعة في مذهب الإسلام وحضارة المسلمين.

لم يكن الرسول ﷺ مترفًا ولا "مستغنيًا"، ولكن الله قد أغناه عن الحاجة بعد أن كان فقيرًا عائلاً: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾(الضحى:٨)، لم يكن "الراهب" الذي يقيم الخصام بين مملكة الأرض ومملكة السماء، ولا "الناسك نسكًا أعجميًا" الذي يدير ظهره للدنيا وطيباتها، إنما كان يقبل الهدية، ويهدي إلى الناس، وكان يتصدق دون أن تتطلّع نفسه أو تمتد يده إلى شيء من الصدقات.. كان له من المال ما يكفيه وأهله، كإمام للدولة، وبمقاييس بساطة تلك الدولة ودرجتها في ذلك الزمان وذلك المكان.. كان المال في يده، ولكنه لم يستول على قلبه في يوم من الأيام.

ونحن إذا شئنا أن نتلمس في سيرته -في خاصة نفسه- نماذج شاهدة على رقيّه وارتقائه في السلوك الجمالي والإحساس بالجمال، إننا واجدون الكثير..

يروي ابن عباس ﷺ فيقول: كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن (رواه الإمام أحمد). والذين يتأملون هذا السلوك -في ضوء قضيتنا- يدركون أن التفاؤل إنما هو ثمرة لرؤية إيجابيات الواقع وجماليات المحيط، وهو ضد التشاؤم الذي لا يرى صاحبه سوى القبح والسلبيات، وأيضًا هو غير السذاجة التي لا يبصر صاحبها لا الإيجابيات ولا السلبيات. فالتفاؤل موقف إيجابي من جماليات الحياة وإيجبيات المحيط.

"ولا يتطير"، لأن المتطير هو الذي لا يرى من الأشياء إلا جانب القبح والشؤم، على حين أن في هذه الأشياء -كل الأشياء- من وجوه الخير والجمال ما يطرد التطير والتشاؤم عن الذين يبصرون هذا الخير وهذا الجمال. "ويعجبه الاسم الحسن"، أي إنه ﷺ قد بلغ في استشعار آثار الجمال إلى الحد الذي جعله يلمحها حتى في الأسماء. فهو يدرك أثر "العنوان" في الدلالة والإيماء إلى "المضمون والموضوع".

ثم أيّ رقي في الجمال والتجمل يبلغ ذلك الذي تحدّث عنه خادمه أنس بن مالك ﷺ، عندما وصف هذا الجانب من حياته فقال: "ما شممت عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسست قط ديباجًا ولا حريرًا ألين مسًّا من كف رسول الله ﷺ ، كان أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ" (رواه مسلم).

ترى، هل هناك في الجمال والتجمل أرقى من ذلك الذي كان، كأن عرقه اللؤلؤ"؟! هذا هو رسول الله، جسّد في عشقه للجمال وارتقائه على دربه، منهجَ الإسلام في التربية الجمالية. فكانت حياته -في خاصة نفسه-

التجسد لسنته التي علمنا إياها عندما قال: "إن الله جميل يحب الجمال".

الاستمتاع بجماليات الحياة

أما "سيرته الجمالية" في أهله فإنها هي الأخرى، نموذج للجمال الراقي وللرقي الجمالي، تدهشنا اليوم بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا. فما بالنا إذا تصورناها في ذلك التاريخ؟!

وهذا هو النبي الذي يأتيه الوحي، ويبلّغ رسالة ربه، ويقود الدولة، ويرعى الأمة، ويكاتب الملوك، ويقاتل صناديد الشرك، وينهض بتغيير وجه الحياة على الأرض.. إنه ﷺ يمارس "السباق" مع زوجته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأين؟ ليس سرًّا وراء الجدران والأبواب المغلقة، وإنما في الطريق وهم مسافرون.

تروي عائشة رضي الله عنها حديث هذا الخُلق الراقي في الاستمتاع بجمال الحياة، وفي الأخذ بحظه من طيباتها فتقول: خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية[1] لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: "تقدموا"، فتقدموا، ثم قال لي: "تعالي حتى أسابقك"، فسابقتُه فسبقتُه.. فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: "تقدموا"، فتقدموا، ثم قال: "تعالي حتى أسابقك"، فسابقتُه، فسبقني.. فجعل يضحك وهو يقول: "هذه بتلك" (رواه الإمام أحمد).

إننا نسوق هذا الطرف من سيرة رسول الله ﷺ لا لنعجب أو نستدر العجب، وإنما لنقول: إن هذا هو المنهج الطبيعي والوحيد للإسلام في علاقة المسلم بجماليات الحياة، منهج ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ

[1] أي صغيرة شابة.

وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليكَ﴾(القصص:٧٧). ولقد أحسن الله إلينا بآيات الجمال التي زين بها كل ما في الوجود.

والإحسان المقابل هو أن نحسن الاستقبال لهذه النعم الإلهية، ونرتقي بقنوات وأدوات وحواس استشعارها والاستمتاع بها شكرًا له على ما أنعم، وإقامة للتوازن والوسيطة الإسلامية التي وإن أنكرت الترف والإسراف في الملذات، فإنها تنكر الرهبانية ونسك الأعاجم وإدارة الظهر لطيبات الحياة. إنه المنهج الذي يعلّمنا أن كل عمل يرتقي بإنسانية الإنسان حتى ما كان منه "لهوا" يروّح عن النفس، و"لذة" حلالا، فهو "عبادة" لله، يستمتع بها الإنسان في دنياه، وتكتب له بها الحسنات التي يوفاها في أخراه. يقول رسول الله ﷺ: "عجبت من قضاء الله ﷻ للمؤمن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته" (رواه الإمام أحمد).

إنه منهج العشق الحلال للطيب من آيات الجمال، ينفي -بل يستنكر- ذلك التجهم الذي يفتعل الخصام بين المسلمين وبين طيبات وجماليات هذه الحياة. فالمسلم لن يستطيع أداء فريضة الشكر لله على نعمة الجمال، إلا إذا عرف واستمتع بأنعم الله ﷻ في هذا الجمال.

وسطية الأمة الإسلامية

- الوسطية الجامعة
- الوسطية منهاج الإسلام

الوسطية هي السمة المميزة للإسلام، وهي السبب الذي جعل الإسلام دين الفطرة البشرية السوية، فكان لذلك سلم الارتقاء على درب المدنية، بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء.

وسطية الأمة الإسلامية

في الوسطية الإسلامية تتمثل السمة والقسمة التي تجد -بحق- أخص ما يخص به المنهج الإسلامي عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات؛ بها انطبعت الحضارة الإسلامية في كل القيم والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات، حتى لنستطيع أن نقول: إن هذه الوسطية، بالنسبة للمنهج الإسلامي وحضارته هي "عدسته اللاّمة" لأشعة ضوئه، وزاويةُ رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضًا.

وهي قد بلغت وتبلغ هذا المقام، لأنها -بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل- إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعدوَ عليها عوارض وعاديات الآفات... تمثل الفطرة الإنسانية في بساطتها وبداهتها وعمقها وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها. إنها صبغة الله، أراد ﷻ لها أن تكون صبغة أمة الإسلام، وأخص خصوصيات منهج الإصلاح بالإسلام، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البَقَرَة:١٤٣). إنها الحق بين باطلَين؛ والعدل بين ظلمَين؛ والاعتدال بين تطرفَين؛ والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلوّ إفراطًا وتفريطًا؛ لأن الغلو الذي يتنكّب الوسطية هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبَي الظاهرة، ووقوف عند

إحدى كفتي الميزان، يفتقر توسط الوسطية الإسلامية الجامعة وإمكانات الشهادة والشهود.

وهذه الوسطية الإسلامية الجامعة ليست ما يحسبه العامة انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام القضايا والمشكلات، لأنها هي الموقف الأصعب الذي لا ينحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين وفقط، فهي بريئة من المعاني "السوقية" التي شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام، وهي كذلك ليست "الوسطية الأرسطية" كما يحسب كثير من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها؛ لأن الوسطية الأرسطية التي رأى بها أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م) أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين هي في العرف الأرسطي أشبه ما تكون في توسطها "بالنقطة الرياضية" التي تفصلها عن القطبين -الرذيلتين- مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية. إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين يتوسطهما، وليست هكذا الوسطية في اصطلاح الإسلام.

إنها في التصور الإسلامي موقف ثالث حقًّا، وموقف جديد حقًّا، ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لا يعني أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما ومكوناتهما. إنه مخالف لهما، لكن ليس في كل شيء؛ وإنما خلافه لهما منحصر في رفض الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها، منحصر في رفضه الإبصار بعين واحدة، لاترى إلا قطبا واحدًا.. منحصر في رفضه الانحياز المغالي، وغلو الانحياز. ولذلك، فإنها -كموقف ثالث، وجديد- إنما يتمثل تميّزها، ومتمثل جدّتها في أنها تجمع وتؤلف كل ما يمكن جمعه وتأليفه -كنسق غير متنافر ولا ملفق- من السمات والقسمات والمكونات الموجودة في

القطبين النقيضين كليهما. وهي لذلك وسطية "جامعة"، تتميز عن تلك التي قال بها حكيم اليونان.

الوسطية الجامعة

إن "العدل" -والوسطية هي العدل بين ظلمين- لا يعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما، كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين. وإنما يعتدل بالوسطية الجامعة التي تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبيّنات الفريقين المختصمين (كفتي الميزان). ولهذا كان قول رسول الله ﷺ: "الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطًا" (رواه الإمام أحمد)، كان التعبير عن حقيقة مفهوم الوسطية في الإسلام.

وفي ضوء هذا المضمون الإسلامي لمصطلح "الوسطية" -وهو المضمون الذي ميّزها بوصف "الجامعة"- نقرأ كل الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذه الخصيصة من خصائص المنهج الإسلامي في الإصلاح. فأمة الإسلام هم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان:٦٧). والمنهاج الوسطي في الإنفاق تشير إليه آيات من مثل: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾(الإسراء:٢٦)، ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾(الإسراء:٢٩). فلا الرهبانية النصرانية والنُّسك الأعجمي ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف.

وإذا نحن شئنا معرفة الامتياز العظيم الذي تمثله "الوسطية الجامعة" وتحققه للمنهج الإسلامي في الإصلاح، والشمول الذي تبلغه تأثيراتها عندما تُراعى وتوضع في الممارسة والتطبيق، فإننا نستطيع ذلك عندما

ندرك كيف مثلت هذه الوسطية -وتمثل- بالنسبة للإصلاح الإسلامي طوق النجاة من تمزق وانشطارية وثنائية المتقابلات المتناقضة، على النحو الذي حدث في حضارات أخرى، وفي الحضارة الغربية على وجه التحديد.

فبهذه الوسطية الجامعة لم يعرف المنهاج الإسلامي التناقض الذي لم يجد له حلاً بين: الروح والجسد، الدنيا والآخرة، الدين والدولة، الذات والموضوع، الفرد والمجموع، الفكر والواقع، المادية والمثالية، المقاصد والوسائل، الثابت والمتغير، القديم والجديد، العقل والنقل، الحق والقوة، الاجتهاد والتقليد، الدين والعلم... إلى آخر الثنائيات، التي عندما افتقد منهج النظر إليها قسمة "الوسطية الجامعة" حدث الانقسام الحاد والشهير في فلسفة الحضارة الغربية إلى "ماديين" و"مثاليين" و"مادية" و"مثالية"، و"عقلانيين" و"لاهوتيين"، و"متدينين"، و"فلاسفة" و"مؤمنين"... منذ العهود اليونانية لتلك الحضارة وحتى نهضتها الحديثة وواقعها المعاصر.

لقد مثلت الوسطية الإسلامية الجامعة لحضارتنا ولمنهاج الإصلاح الإسلامي طوق النجاة من هذه الثنائيات وتمزقاتها وغلوها. ولذلك، كانت المعيار لإسلامية مناهج النظر الفكري ومناهج الإصلاح بالإسلام.

ولقد تألقت الدعوة الإصلاحية للإمام محمد عبده حول بدايات القرن الرابع عشر الهجري في واقع حضاري تميز بسيادة الجمود والتقليد في دوائر طلاب العلم الديني -وهو غلو يحجب الدين والإصلاح الإسلامي عن الواقع والحياة- فيخلق الفراغ الديني الحق في هذا الواقع، ويبعد المنهاج الإصلاحي الإسلامي عن أن يكون هو سبيل الأمة للنهضة والتقدم.

كما تميز هذا الواقع الحضاري بزحف النموذج الغربي في التقدم والتحديث على الشرق الإسلامي، ذلك النموذج الذي وفد إلى بلادنا

في ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لعالم الإسلام. وهو نموذج قد تميز بالغلو الشديد، وذلك عندما انحاز إلى عالم الشهادة رافضا عالم الغيب، وإلى الدنيا في مواجهة الدين، وإلى الفردية في مقابلة الجماعة، وإلى الأرض في رفضه لحاكمية السماء وشريعتها، وإلى المادية والوضعية في مقابلة الروح، وإلى القوة في مواجهة العدل، وإلى الصراع بدلا من التدافع، وإلى العقل في مقابلة النقل والوجدان... فملأ هذا النموذج الغربي الفضاء الفلسفي والثقافي والسياسي بحشد غفير من "الثنائيات المتناقضة" التي عبرت وتعبر عن غلو التفريط، المقابل لغلو الإفراط الذي مثله الجمود والتفكير والتقليد السائدَين بين طلاب علوم الدين في شرقنا الإسلامي في ذلك التاريخ.

ولمجافاة كلا الموقفين -جمود طلاب علوم الدين، وجحود طلاب العلوم الغربية- لمنهاج الوسطية الإسلامية في الإصلاح والنهوض، كان حرص الإمام محمد عبده على تميز منهاجه في الإصلاح بسمة الوسطية الإسلامية الجامعة. فكتب عن تميز موقفه ومنهجه ودعوته بهذه الوسطية عن أهل الجمود والتقليد للموروث، وأهل الجمود والتقليد للوافد الغربي فقال: "ولقد خالفتُ في الدعوة إليه (أي إلى منهجه في الإصلاح) رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم".[1]

ثم تحدث عن أن هذه الوسطية التي انحاز إليها وتميز بها منهاجه الإصلاحي ليست خيارًا ذاتيًّا، وإنما هي منهاج الإسلام، الذي تميز به عن

---

[1] الأعمال الكاملة، للإمام محمد عبده، ج٢، ص:٣١٠. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م.

الغلو الذي أصاب أهل الشرائع الأخرى، "فلقد ظهر الإسلام، لا روحيًّا مجردًا، ولا جسديًّا جامدًا، بل إنسانيًّا وسطًا بين ذلك، آخذا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملازمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره. ولذلك سمى نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدّوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية".[١]

فالوسطية هي السمة المميزة للإسلام، وهي السبب الذي جعل الإسلام دين الفطرة البشرية السوية، فكان لذلك سلم الارتقاء على درب المدنية، بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء.

وبهذه الوسطية التي تميز بها الإسلام تميزت أمة الإسلام عن أمم الشرائع السابقة التي حُرّف بعضها إلى الغلو المادي، وحُرّف بعضها الآخر إلى الغلو الروحاني، وبعبارة الإمام محمد عبده: "ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليده المادية المحضة، فلا همّ له إلا الحظوظ الجسدية، كاليهود والمشركين؛ وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثَنيّي الهند أصحاب الرياضات. وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها الحقين؛ حق الروح وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية. وإن شئت قلت: إنه أعطاها جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان ومَلَك، فكأنه قال: جعلناكم أمة وسطًا، تعرفون الحقّين وتبلغون الكمالَين".[٢]

ولأن السنة النبوية هي البيان النبوي للبلاغ القرآني، كانت سنة رسول

---

[١] المصدر السابق، ج٣، ص:٢٨٧.

[٢] المصدر السابق، ج٤، ص:٣٣٣.

الله ﷻ وطريقته في العمل والقول التجسيد لمنهاج الوسطية الإسلامية. ويكفي أن نتأمل مع سيرته الشريفة قوله ﷺ: "إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق" (رواه الإمام أحمد)، و"إن دين الله ﷻ يسر" (رواه البخاري)، و"إن الله ﷻ لم يبعثني معنِّفا، ولكن بعثني ميسِّرًا" (رواه مسلم والإمام أحمد)، وعن عائشة رضي الله عنها: "ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين في الإسلام إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه" (رواه البخاري).

الوسطية منهاج الإسلام

ولأن هذه الوسطية الجامعة بهذا المعنى، هي منهاج الإسلام في الحياة، بمختلف ميادين الحياة الفردية والاجتماعية؛ فإن العقل المسلم يستطيع أن يفقهها ويطبقها في سائر الميادين:

• فـ"الكرم" وهو خلق وسلوك وسط ليس غريبا تماما عن القطبين النقيضين: "الشحّ" و"الإسراف"، وإنما هو جامع منهما سمات هذا الكرم ومكوناته، جامع لقدر من "التدبير والاقتصاد" ولقدر من "البذل والعطاء"، ففيه اجتماع لعناصر الحق والعدل من القطبين المتناقضين.

• وكذلك "الشجاعة" نجدها وسطا بين "الجبن" و"التهور"، لكنها جامعة بين مقادير من "حذر" الجبان، ومقادير من "إقدام" المتهور، فلا هي منحازة لأحد النقيضين، ولا هي مغايرة كل المغايرة لهما معًا.

• وفي فلسفة الإسلام في الاقتصاد والثروات والأموال، نجد "الاستخلاف" وسطا بين "الحرية المطلقة" في الأموال، وبين الإلغاء الكامل للحرية في الأموال. فالإنسان مالك وحر ومستثمر ومنفق ومستمتع، لكن كوكيل وخليفة في الملكية الاجتماعية عن المالك الحقيقي وهو الله ﷻ.

فكل حقوق الإنسان في الثروات والأموال محكومة بحقوق الله وفرائضه في التوازن والتكافل بين الأمة.

• وفي الموقف من تمايز الناس إلى طبقات اجتماعية، يقف الإسلام بوسطيته الجامعة بين الحرية المطلقة التي تثمر التفاوت الفاحش بين الطبقات، وبين "الطوباوية" التي حلت بمجتمعات لا طبقية. فطبيعي وضروري -بناء على تفاوت الطاقات والهمم والجهود- أن يتمايز الناس في المكاسب والحظوظ، لكن الوسطية تفرض وقوف هذا التمايز عند حدود التوازن والتكافل، الذي يجعل الأمة جسدًا واحد، تتكافل أعضاؤه، مع تفاوت الأهمية والعطاء والحاجات لكل عضو من هذه الأعضاء.

وبعبارة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في عهده إلى واليه على مصر "الأشتر النخعي": "واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض".[1]

• وفي الموقف من العلاقات بين الحضارات تقدم الوسطية الإسلامية منهاج "التفاعل" الذي هو وسط بين غلو في "الانغلاق والعزلة"، و"التبعية والتقليد". ففي "التفاعل" استلهام لكل ما هو مشترك إنساني عام، مع التمايز في الخصوصيات المتعلقة بالهويات العقدية والثقافية.

• كما تقدم الوسطية الإسلامية منهاج "التدافع" عندما يختل التوازن في العلاقات بين الحضارات وكذلك الطبقات، لأن هذا "التدافع" هو متن وسط، يمثل الحراك الاجتماعي الذي يزيل الخلل، ويعيد العلاقات إلى مستوى التوازن والعدل، مع الحفاظ على تعدد وتنوع وتمايز

[1] "نهج البلاغة"، ص:٣٣٧، خ بشرح الإمام محمد عبده، وتحقيق وتعليق: محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا. طبعة دار الشعب، القاهرة.

الفرقاء المختلفين. فهو "التدافع" وسط بين "السكون" الذي ينزل الخلل ليستفحل، وبين "الصراع" الذي يصرع فيه القوي الضعيف، فينهي التعددية والتمايز والاختلاف.

لقد رفض القرآن منهاج "الصراع" لأنه يزيل سنة التعددية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾(الحآقة:٧-٨)

بينما "التدافع" حراك يعدل المواقف، مع المحافظة على التعدد والتنوع والاختلاف: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤).

تلك هي الوسطية الإسلامية الجامعة، صبغة الله التي أرادها لأمة الإسلام، والفطرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات، وعدسة الرؤية اللاّمة لقسمات المنهج الإسلامي ومعالم تصوره في "الفكر" و"الحياة". وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: "الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطًا".

الفرد والطبقة والأمة

- نسق التكاليف الدينية
- مركزية دور الفرد
- الفرد لبنة كيان الأمة
- الأمة في التصور الإسلامي
- التمايز الطبقي
- الإسلام لا يتجاهل الواقع
- علاقة الطبقة بالأمة
- مفهوم العدل في الإسلام

إن الإسلام لا يرى في وجود الطبقات إخلالاً بالأمة، ولكنه كما أقام علاقات الترابط بين الفرد وبين الأمة، كذلك يهذب من حدود التمايز والتفاوت الطبقي ويضبط جموحه ويرسم آفاقه على النحو الذي يجعل علاقات الطبقات الاجتماعية في لحظة التوازن ودرجته ومستواه؛ لأن هذا التوازن الذي يجمع بروابط التساند الطبقات المتعددة هو العدل الوسط في منهج الإسلام.

الفرد والطبقة والأمة

الإسلام دين الجماعة. أي الأمة، تلك خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي. وكون الأمة هي الجامعة الأساسية -في المنظور الإسلامي- لا يعني الإجحاف بحقوق "الفرد"، ولا الإنكار لوجود "الطبقة" -بالمعنى الاجتماعي- في إطار "الأمة"، وإنما هي العلاقات التي أقامتها الوسطية الإسلامية الجامعة بين "الفرد" و"الطبقة" و"الأمة" على نحو متميز وفريد.

فالمسؤولية في الإسلام في الكثير من التكاليف، وفي الحساب والجزاء عليها مسؤولية فردية، نَقَل الإسلام بها هذا الفردَ من وضع الذوبان الكامل في إطار القبيلة والعشيرة، لكن هذا الإنسان الفرد هو مدني بالجبلة، اجتماعي بالطبع، يستحيل عليه أن يحيا فردا وفي حدود النزعة الفردية.

نسق التكاليف الدينية

والتكاليف في الإسلام منها الفردي (فروض العين) ومنها الاجتماعي (فروض الكفاية)، وهي جميعا ينتظمها نسق واحد، هو نسق التكاليف الدينية، والرباط بينها عضوي، حتى لَيستحيل على الفرد -بسبب من مدنيته واجتماعيته- أن ينهض بتكاليفه الفردية (فروض العين) إذا أصاب الخللُ النظامَ الاجتماعي بتخلف الفروض الاجتماعية. فإذا انعدم الأمن

في المجتمع أو عزّ فيه القوت، فأنّى للعابد أن يعبد الله ويؤدي فرائضه العينية؟! لقد قال الفقهاء: إن صلاة الخائف والجائع لا تصلح؛ لأن الحضور فيها -وهو شرط إقامتها- لا يتأتى إلا بالأمن الاجتماعي وتوافر الأقوات. ولقد أصاب الإمام الغزالي عندما حدد الضرورات الاجتماعية التي يستحيل بدون توافرها إقامةُ الدين، فقال: "إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا؛ فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يُتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية. إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين.."[1] ولذلك كانت فروض الكفاية (الاجتماعية) في المنهج الإسلامي آكدَ من فروض العين (الفردية)، للارتباط العضوي بينهما في النسق التكليفي الواحد، ولترتُّب التمكن من أداء كثير من فروض العين على تحقيق كثير من فروض الكفاية.

مركزية دور الفرد

لكن تحقيق الفروض الاجتماعية لا يغني عن ضرورة الفروض العينية؛ لأن مكانة الأمة والجماعة في التصور الإسلامي لا تلغي دور الفرد ومكانته، فالمسؤولية والتكليف والحساب والجزاء فردي، ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الإسراء:١٥) في التكاليف الفردية، لكن البلوى الاجتماعية إذا عمت طالت من لا يد له فيها. ولذلك دعانا الله إلى اتقاء الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا دون سواهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(الأنفال:٢٥). إن النهوض بالمسؤوليات والتكاليف الفردية هو

[1] الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، مطبعة صبيح، القاهرة، ضمن مجموعة، بدون تاريخ.

السبيل إلى إقامة التكاليف الاجتماعية.. كما أن إقامة التكاليف الاجتماعية هو الذي يهيئ للفرد الوفاءَ بحقوق تكاليفه العينية. وهذا الترابط بينهما هو التعبير عن ارتباط الفرد بالأمة في منهج الإسلام.

الفرد لبنة كيان الأمة

وفي ضوء هذه الحقيقة نقرأ صياغتها عند الماوردي عندما يقول: "واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما: ما ينتظم به أمورُ جملتِها. والثاني: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها. فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه؛ لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلالِ أمورها، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ويقدح فيه اختلالها؛ لأنه منها يَستمد ولها يستعد. ومَن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرًا؛ لأن الإنسان دنيا نفسه، فليس يَرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه؛ لأن نفسه أخص وحاله أمسّ، فصار نظره إلى ما يخصه مصروفًا، وفكره على ما يمسه موقوفًا.[1]

فالفرد هو نقطة البدء، وهو بواسطة الأسرة والعشيرة يُعدّ لبنة في كيان الأمة، ولا مكان للفردية المغالية في المنهج الإسلامي؛ لأن صلاح اللبنة موقوف على كونها جزءًا من البناء الكبير.

الأمة في التصور الإسلامي

والأمة في التصور الإسلامي ليست مجرد جمع "كمي" يساوي

[1] أدب الدنيا والدين، للماوردي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص:١٣٤.

عدد الأفراد فيها، وإنما هي كيان جامع، له حالة (كيفية) جديدة تفوق كيفياتِ وقدراتِ أفرادها متفرقين. إنها كيان متميز، له ما ليس للأفراد المتناثرين. إن الخيوط المتفرقة ليست لها القوة المتحصلة منها ذاتها إذا هي اجتمعت. وقطرات الماء المتفرقة لا تحدث الري الذي تحدثه عند الاجتماع. والأفراد المتفرقون ليست لهم حصافة الرأي ورجاحة العقل وكياسة النظر التي تتأتى لهم بشورى الاجتماع. ولذلك لم يَمنع جوازُ الضلال على كل فرد من أفراد الأمة، أن تكون لهذه الأمة العصمةُ عند الاجتماع والإجماع. ويشهد على هذه الحقيقة الموضوعية حديث رسول الله ﷺ: "إن الله وعدني في أمتي وأجارهم من ثلاث: لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة" (رواه الدارمي).

فللأمة في الإسلام مقام فريد، يعلو بها عن مجرد الجمع العددي والتراكم "الكمي" لما لدى أفرادها وآحادها. ولقد أبصر الماوردي وهو يتحدث عن مذاهب الأمم في "الشورى" كيف أن الحضارات التي مالت كفتها لحساب "الفرد" قد حبذت "الشورى الفردية"، بينما حبذت الحضارات التي مالت كفتها لحساب المجموع "شورى الاجتماع". ثم أضاف الجديد الذي تميزت به حضارة الإسلام وشوراه، عندما جمعت بين الاثنين (الفرد والمجموع) فقال: إن مذهب الإسلام في "الشورى" هو الجمع بين "شورى الفرد" و"شورى الاجتماع"، فحيث تكون القضايا مما تحتاج إلى الاجتهاد وإعمالِ الفكر واستنباطِ الأدلة تكون شورى الانفراد؛ لأنها شورى الاجتهاد. وحيث يكون المراد هو الكشف عن ثمرات الاجتهاد الفردي، فإن الاجتماع والمواجهة (شورى الاجتماع)

تكون هي السبيل القويم.[1] فللارتباط بين الفرد والمجموع كان جمع الشورى الإسلامية بين نمطي شوراهما جميعًا.

التمايز الطبقي

وكما أن دار الإسلام تتألف من أوطان وأقاليم يجمعها جامع الإسلام: العقيدة والشريعة والحضارة؛ فكذلك أمة الإسلام تتألف من الشعوب والقبائل التي تعارفت بالإسلام وعليه، فغدت أمة الإسلام التي لا تمزّق وحدتَها التمايزاتُ القومية والعرقية والبيئية؛ لأنها تمايزات الواقع الذي لا يناقضه الإسلام، وإنما يهذبه فينظمه في نسق العقيدة الواحدة والحضارة الواحدة.

وإذا كانت مكانة الفرد في المنهج الإسلامي قد شهدت بتميزها المسؤولية الفردية، والتكاليف الفردية.. وإذا كان القرآن الكريم قد أبرز مكانة الأمة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء:٩٢) ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣).. فإن المنهج الإسلامي لا ينكر وجود "الطبقة" ولا التمايز الطبقي في إطار الأمة وفي داخلها؛ فالتفاوت الاجتماعي -بنظر الإسلام- حقيقة من حقائق الواقع، نابعة من تفاوت الحوافز والقدرات والجهد المبذول والذكاء الذي يستخرج الثمرات.. والإسلام لا يقفز على حقائق الواقع ولا يتجاهلها ولا يعاديها، ولكنه يهذبها ويضبطها كي تظل في إطار "المشروع" ونطاق "العدل" الذي لا يعني المساواة التامة وإنما يعني "التوازن" بين فرقاء متفاوتين.. التوازن (الوسط) العدل، الذي ينكر الظلم ويقترب بالتفاوت إلى حيث درجة التوازن ولحظة العدل،

---

[1] أدب الدنيا والدين، ص:٢٩٣.

التي يكون فيها التفاوت مؤسسًا على ما هو ضروري ومشروع وطبيعي من العوامل والأسباب. ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾(النحل:٧١). فإذا تأسس التفاوت والتمايز الاجتماعي والاقتصادي على ما هو مشروع من الأسباب، وإذا أحدث هذا التفاوت تمايز الأمة إلى طبقات اجتماعية متميزة، فإن الإسلام لا يرى في وجود الطبقات إخلالاً بالأمة، ولكنه كما أقام علاقات الترابط بين الفرد وبين الأمة، كذلك يهذب من حدود التمايز والتفاوت الطبقي ويضبط جموحه ويرسم آفاقه، على النحو الذي يجعل علاقات الطبقات الاجتماعية في لحظة التوازن ودرجته ومستواه؛ لأن هذا التوازن الذي يجمع بروابط التساند الطبقات المتعددة هو العدل الوسط في منهج الإسلام.

أما إذا اختل هذا التوازن الاجتماعي بين الطبقات في أمة الإسلام؛ فإن الخيوط الجامعة بين الطبقات تخلي مكانها لعوامل التناقض والصراع بين هذه الطبقات. وتلك هي الأخرى حقيقة موضوعية، وواقع اجتماعي، لا ينكره المنهج الإسلامي ولا يستنكره ولا يتجاهله ولا يقفز عليه. لكنه يضع أيضًا لهذا الصراع الضوابطَ، ويحدد له الغاياتِ والآفاقَ؛ فالهدف منه هو العودة بالعلاقات الطبقية إلى درجة التوازن ولحظة العدل الوسط. وليس الهدف منه أن يَنفي قطبٌ القطبَ الآخر تماما، وأن تُلغي طبقةٌ الطبقةَ النقيض كلية وتقتلعها من الوجود؛ فهذا المفهوم للصراع الطبقي هو خصيصة غربية، لأن لهم مفهومهم الخاص لآفاق حرية الطبقة في التمايز والامتياز.. وهي آفاق قد لا تعرف الحدود. فالبرجوازية سعت إلى نفي الإقطاع، والبروليتاريا سعت وتسعى إلى نفي البرجوازية. وما حديث

"الشمولية-الشيوعية" عن المجتمع اللاطبقي إلا حديث عن المجتمع الذي تنفرد فيه طبقة واحدة بسلطات الفكر والحكم والمال.. لكنهم يكتشفون أن التمايز الطبقي الطبيعي حقيقة موضوعية من حقائق التوازن الاجتماعي (أي العدل الاجتماعي) وضرورة من ضروراته. فما ظنوه اقتلاعًا للبرجوازية، لم يكن أكثر من استبدال الطرف الذي يتمتع بامتيازاتها؛ فبدلا من الملاك الرأسماليين حل "الحزب" و"التكنوقراط" (أي الدولة) التي امتلكت سلطات الفكر والحكم والمال بدلاً من ملاكها السابقين. تغيرت الأسماء، ولم تلغ الطبقية في المجتمع الذي ظنوه لا طبقيًّا، حتى لَيتحدثون عن حاجة مجتمعهم هذا إلى ثورة لإزالة ما به من تناقضات.

الإسلام لا يتجاهل الواقع

لكن الإسلام الذي لا يقفز على الواقع ولا يتجاهل حقائقه -ومنها التمايز الطبقي النابع من التفاوت الاجتماعي الطبيعي- يجاهد لإبقاء هذا التفاوت في حدود الأسباب المشروعة، ويعمل على أن لا تتجاوز آفاقه لحظة التوازن، التي هي درجة العدل (الوسط).. فإذا تجاوز هذه الآفاق واختل التوازن وحل الظلم الاجتماعي محل العدل الاجتماعي، فلا حرج في الإسلام أن يشهد المجتمع دفعا طبقيا، بل لقد رآه الإسلام سنة من سنن الله في المجتمعات، تقود الظاهرة الاجتماعية من درجة الخلل ولحظة الظلم إلى درجة التوازن ولحظة العدل بين الطبقات؛ ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١)،[1]

---

[1] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٤٠).

و"من أريد ماله بغير حق فقاتل فَقُتِل فهو شهيد" (رواه الترمذي).

فهذا الدفع الاجتماعي الذي هو سنة من سنن الله في المجتمعات هو أداة العودة بالعلاقات -إذا هي خرجت من دائرة التمايز المشروع والطبيعي في الرابطة الجامعة إلى دائرة التناقضات العدائية والممزِّقة لجامع الأمة وتضامنها- هو أداة العودة بالعلاقات الطبقية من إطار الخلل والظلم إلى إطار التوازن والعدل؛ لتظل الأمة هي الجامعة، حاملة رسالة الإسلام: العقيدة والشريعة والحضارة. وليست الطبقة هي حاملة الرسالة البرجوازية -ورسالتها "الليبرالية-الرأسمالية"، والبروليتاريا -ورسالتها "الشمولية-الشيوعية".

علاقة الطبقة بالأمة

ثم إن هذا الموقف المتميز للمنهج الإسلامي من علاقة الطبقة بـ"الأمة"، هو الآخر مؤسس على مفهوم متميز لمعنى "الطبقة" في منهج الإسلام؛ فإذا كانت "الطبقة" هي الشريحة المتميزة اجتماعيا في إطار الشعب أو الأمة، وإذا كان هذا التعريف لها هو مما يمكن الاتفاق عليه في مختلف المذاهب والحضارات، فإن خلاف المنهج الإسلامي مع المناهج الغربية يأتي في العامل والمعيار الذي يميز هذه الشريحة فيجعلها طبقة اجتماعية متميزة عن غيرها من الطبقات.

ففي الحضارة الغربية نجد أن الوضع المادي (الاقتصادي) هو الأساس الأول والمعيار الأعظم في تمييز الطبقة اجتماعيًّا. وما نوع العمل في ذلك المنهج إلا سبيل لتحديد مستوى هذا الوضع المادي والاقتصادي.. أما في المنهج الإسلامي فإن معايير تمايز الطبقات متعددة ومتنوعة، ولا تقف عند العامل المادي وحده. فنوع العمل ووظيفته في المجتمع ومكانته في الهيئة الاجتماعية يثمر تميز الطبقة اجتماعيًّا حتى مع غيبة التماثل المادي

والاقتصادي داخلها، لأن شرف العمل أو وضاعته، وخطره أو ثانويته، تثمر رباطًا يصنع ويميز الطبقة اجتماعيًّا عن غيرها من الطبقات، وابن الفلاح الذي ينفلت من طبقة الفلاحين مهنيًّا طبيبًا أو مهندسًا أو عالمًا أو رجل دولة أو قائدًا عسكريًّا، إنما يدخل في طبقة اجتماعية جديدة تميزه اجتماعيًّا، حتى ولو لم يتجاوز ماديًّا المستوى الاقتصاديَ الذي يوجد عليه أبوه الفلاح، وحتى مع بقائه عضوا في أسرة فلاحية. فليس بالعامل المادي والاقتصادي وحده تتمايز الطبقات. كما أن هذا التمايز، لأنه في إطار الجامعة الأعظم جامعة الأمة، لا يعرف الفواصل الحادة، على النحو الذي عرفته الحضارة الغربية في العلاقات ما بين الطبقات.

مفهوم العدل في الإسلام

هكذا أقام المنهج الإسلامي ويقيم العلاقة بين الفرد والطبقة.. وبين الطبقات -في إطار الأمة- على النحو الذي يحقق فيه الكلُّ ذاتَه ورسالته، وعندما يكون التوازن والعدل والوسط هو ميدان الاجتماع والالتقاء. فإذا اختل الأمر كان الدفع الاجتماعي والجهادُ لإعادة العلاقات إلى صحتها، ونفيِ عوامل المرض وجراثيمه منها، وليس لينفي طرف من الأطراف الطرفَ الآخر حالمًا بالانفراد والاستغناء. إن الاجتماع والاشتراك (الأمة) والتأليف والتساند بين الفرقاء المتميزين هو العدل.. أما الانفراد -من الفرد أو من الطبقة في السلطة السياسية أو بسلطان المال- فهو عين الظلم وذات الطغيان. وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦-٧).

إن هناك حدًّا أدنى للعدل لابد أن يتوفر للفرد هو الإنصاف في القانون

والحكم، والإنصاف في أمور المعاش. وفي كتاب عمر بن الخطاب ﷺ حول القضاء إلى أبي موسى الأشعري ﷺ، يقول: "وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسم".[١] هذا هو الحد الأدنى من العدل للفرد الضعيف في منهج الإسلام.

وفي العهد الذي كتبه الإمام علي بن أبي طالب ﷺ إلى واليه على مصر (الأشتر النخعي) حديث عن التمايز الطبيعي والواقعي بين طبقات الأمة، وعن واجب الدولة الإسلامية حيال هذا الواقع الطبقي، وعن السبيل لإبقاء العلاقات في درجة التوازن ولحظة العدل. يقول الإمام علي ﷺ لواليه: "واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها: جنود الله، ومنها: كُتّاب العامة والخاصة، ومنها: قضاة العدل، ومنها: عمال الإنصاف والرفق، ومنها: أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها: التجار وأهل الصناعات. ومنها: الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة (أي العاجزون عن الكسب والتحصيل).. فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب. ولا قوام لهم جميعًا إلا بالتجار وذوي الصناعات".[٢]

فالمطلوب لتحقيق العدل ليس الصراع الذي تنفي فيه طبقةٌ بقيةَ الطبقات، بزعم أن العدل مرهون بالمجتمع اللاطبقي. وإنما العدل المطلوب سبيله إقامة التوازن بين الطبقات التي تُعد وظائفُها ضروراتٍ اجتماعية تحقق للمجتمع ثمرات من الكسب المادي والفكري، والكسبِ

---

[١] تاريخ الطبري، لابن جرير الطبري، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٣/٤

[٢] نهج البلاغة، للإمام علي بن أبي طالب، دار الشعب، القاهرة، ص:٣٣٧.

الحافظ على المجتمع قدرته وحركته ومنعته. لأن هذه الطبقات كما يقول الإمام علي: "لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض".

ولعل هذا التساند الطبقي، والارتفاق الذي لا غنى عنه بين الطبقات، لعله ان يكون التفسير الأدق لقول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف:٣٢). فالتمايز والتفاوت الطبقي والمحدد بأنه درجات، هدفه -وهذا هو المعنى المناسب لـ﴿سُخْرِيًّا﴾- هو التساند والارتفاق، وأن تكون كل طبقة هي للأخرى مرفق وسند وعماد. وليس المراد سخرة الاستعباد والإذلال التي هي عين الظلم الذي تَنَزه الله عن فعله وعن إرادته للناس. فالطبيعة وظواهرها وقواها قد سخرها الله للإنسان يرتفق بها ويستعين على عمارة الأرض وتزيينها. وكذلك التمايز الطبقي ضرورة للتساند والارتفاق، عندما تكون العلاقات الطبقية في لحظة التوازن ودرجة العدل؛ لتكون الأمة بأدائها الاجتماعي كالفريق وكالجسد الواحد، الذي وإن تكن من أعضاء متمايزة إلا أن العلاقات والروابط الصحيحة بين أعضائه المتعددة تُحقق له -بتنمية الحوافز وإثارة الهمم- أداء موحدا لجسد واحد، حتى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ولأن هذه هي "فلسفة الإسلام الاجتماعية" وجدنا القرآن الكريم يجعل "المال" مال الله ﷻ في ذات الوقت الذي يجعله مال الناس بحكم خلافتهم فيه عن الله، فلقد قال خالقه وواهبه لخلفائه فيه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(الحديد:٧). فجعل ملكية الرقبة الملكية الحقيقية له سبحانه، وجعل للإنسان فيه ملكية المنفعة لملكية المجازية المحقِّقة لمقاصد

الاستخلاف في هذه الأموال، وذلك حتى ينفتح الباب -دائمًا وأبدًا- أمام حركة الدفع الاجتماعي وأنصار العدل الاجتماعي كي يعيدوا أوضاع الامتلاك والاختصاص والحيازة في الأموال إلى درجة التوازن ولحظة العدل التي تنفي الخلل والظلم وتُحقق مقاصد الاستخلاف. فإذا غدا المال ﴿دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ﴾(الحشر:٧) جاز -بل وجب- إعادة التوازن بين الفرقاء، بتأسيس التفاوت بينهم على المشروع من الأسباب والحلال من الثمرات.

وفي نطاق المستخلفين وجدنا القرآن الكريم يضيف مصطلح "المال" إلى ضمير "الجمع" في سبع وأربعين آية ﴿أَمْوَالكُمْ﴾ و﴿أموَالهُمْ ﴾ وإلى ضمير الفرد في سبع آيات ﴿مَالهُ﴾ ﴿مَالِيَهْ﴾، فلا ينفرد جانب دون الآخر بحق الاستخلاف.

ولعل في تأمل الآية الكريمة التي تشرّع لنوع العلاقة بين المستخلَف في المال وبين الله الذي استخلفه، ثم بينه وبين أصحاب الحقوق في هذا المال -وهي علاقة الواسطة والسبب بين الواهب وبين أصحاب الحقوق-.. لعل في تأمل الآية التي تشرّع لذلك فتقول: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(النور:٣٣) ما يجسد هذا المعنى الذي نلح على إبرازه. فالمال مال الله، وهو قد آتاه حائزةً ليؤتى منه أصحاب الحقوق. فالحائز "واسطة"، والحيازة وظيفة اجتماعية واقتصادية لمصلحة المجموع.

ثم لنتأمل صنيع عمر بن الخطاب ﷺ مع الصحابي بلال بن الحارث ﷺ، و"الإقطاع" الذي أقطعه إياه رسول الله ﷺ؛ لقد سأل بلال الرسول أن يقطعه أرضًا واسعة، فأقطعها له، وكان ذلك سبيلاً لإحياء الارض الموات أو زراعة الأرض التي لا صاحب لها، ولكن بلالاً حجز هذه الأرض دون أن يزرعها بحجة أنه صاحبها يفعل فيها ما يريد. لكن عمر

رأى أن في ذلك إخلالاً بالتوازن والعدل الذي يجب أن يحكم علاقات الملكية والحيازة في الأموال كي لا تكون دولة بين الأغنياء، يحوزون أكثر مما يطيقون ويحتاجون، بينما لا يجد الآخرون ما يحتاجون. فأراد عمر العودة بهذه العلاقة بين بلال والأرض من درجة الخلل إلى درجة التوازن والعدل، وذلك بأن تقتصر حيازته على ما يطيق زراعته، وأن يعطى الزائد لمن يحييه ويستثمره. ولما جادل بلال في ذلك قسره عليه عمر، بل وسَنَّ قانونًا ينظم أمر هذه الإقطاعات، ويَضمن إعادة العلاقة بالأموال -إذا هي اختلت- من درجة الظلم والخلل إلى درجة العدل والاتزان.

لنتأمل صنيع عمر ﷺ هذا من خلال كلمات الحوار الذي دار عنيفًا بينه وبين بلال بن الحارث ﷺ، والذي بدأه عمر فقال لبلال: إنك استقطعت رسول الله أرضًا طويلة عريضة فقطعها لك، وإن رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئًا يُسأله، وأنت لا تطيق ما في يدك.

- أجل.

- فانظر ما قويت عليه فأمسكه، وما لم تقدر عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين.

- لا.. لا أفعل، هذا شيء أقطعنيه رسول الله.

- إن رسول الله لم يقطعك لتحتجزه عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورُد الباقي.

- لا أفعل.

- والله لتفعلن.

وأخذ عمر من بلال ما عجز عن عمارته فقسمه بين الناس. ثم خطب الناس: "من أحيا أرضًا ميتة فهي له.. ومن عطل أرضًا ثلاث سنين لم

يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له".[١]

فنحن هنا أمام تطبيق خلّاق لفلسفة الإسلام في استخلاف الناس في الأموال عن الله، وتحديد آفاق ملكيتهم وحيازتهم لها بحدود عهد الاستخلاف. وأمام تجسيد لمذهب الإسلام في الإقرار بالتمايز الاجتماعي والطبقي، مع الحرص على أن تكون علاقات المتمايزين طبقيا عند لحظة التوازن والعدل (الوسط). فإذا حدث الخلل والظلم عاد المنهج الإسلامي بهذه العلاقات -كما صنع عمر مع بلال بن الحارث- إلى درجة التوازن والعدل. فهو لم يلغ حيازة بلال للأرض إلغاء كاملا، وإنما وقف بها عند حدود التوازن العادل. "خذ منها ما قدرت على عمارته، ورد الباقي إلينا نقسمه بين المسلمين".

هنا تنشأ وتصح العلاقات بين الفرد، والطبقة، والأمة، وتظل الوسطية الإسلامية الجامعة المعيار الذي يرشِّد هذه العلاقات، ويضمن لها البقاء في درجة التوازن ولحظة العدل، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "الوسط: العدل، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣)" (رواه الإمام أحمد).

---

[١] الخراج، ليحيى بن آدم، طبعة القاهرة، ١٣٧٤م، ص:٩١-٩٣؛ الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، طبعة الشروق، القاهرة، ١٩٨٩، ص:٣٨٢-٣٨٤.

الفروسية الإسلامية

سَنّ الإسلام "دستورًا" لأخلاقيات الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرنًا؛ فحرّم الخيانة في المغانم، والسرقة من أموال المحاربين، وحرم الغدر حتى بالأعداء أثناء القتال، وحرم التمثيل بجثث القتلى، احترامًا لكرامة جثث القتلى الأعداء.

الفروسية الإسلامية

في مكة ظهر الإسلام سنة ١٣ق.هـ سنة ٦١٠م ولأنه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦).. فلقد كان المسلمون -دائمًا- يتركون لمن عداهم حتى من المشركين -فضلاً عن الكتابيين- حرية الاختيار، ويعلنون قول الله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦)، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩).. لأن الإكراه يثمر "نفاقًا" لا "إيمانًا"!

ومع هذا.. فعلى امتداد ثلاثة عشر عامًا -هي عمر الدعوة النبوية بمكة- صب المشركون الوثنيون، بقيادة ملأ قريش وصناديد الشرك فيها، كل ألوان العذاب على الذين اهتدوا إلى الإسلام، وخاصة المستضعفين والفقراء والأرقاء.

ولقد عزل المشركون القلةَ التي آمنت -مع أهليهم- وحاصروهم في "شعب بني هاشم"، وقاطعوهم اقتصاديًا واجتماعيًا حتى أشرفوا على الهلاك، فاضطر عدد من المسلمين إلى الهجرة -مرتين- إلى الحبشة، خلال تلك السنوات، فرارًا بدينهم وأنفسهم من الاضطهاد والتعذيب.

ولقد تصاعد الحصار للدعوة، وزاد الاضطهاد للمؤمنين بها، حتى دُفعت القلة المؤمنة دفعا إلى الخروج من ديارهم مكة.. فأخذوا يتسللون إلى المدينة المنورة (يثرب) بعد أن اهتدى نفر من أهلها (الأنصار) إلى دين الإسلام.

وعندما قرر ملأ قريش، وصناديد الشرك فيها توجيه الضربة القاصمة إلى رسول الإسلام وإمام دعوة التوحيد محمد بن عبد الله ﷺ... وأخذوا

في المكر والتآمر.. وتقليب الخيارات: أيقتلونه؟ أم يحبسونه؟ أم يخرجونه من مكة؟! ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(الأنفال:٣٠).. أَذِن الله ﷻ لنبيه ورسوله بالهجرة من مكة إلى المدينة بعد أن تعاقد سنة ١ ق.هـ مع الأنصار على إقامة الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة المنورة.. فهاجر إليها سنة ١ هـ سنة ٦٢٢م، وأقام الدولة، التي ضمنت للدعوة وطنا، والتي تُساس بالدين، وتحرس هذا الدين.

لكن المشركين من قريش، وحلفائهم العرب واليهود لاحقوا المسلمين في مهجرهم الجديد، يريدون القضاء على دعوة الإسلام وعلى الدولة التي أقامها المسلمون لحراسة الإسلام.

وهنا.. أذن الله ﷻ للمؤمنين الذين فُتنوا في دينهم، وسُلبت منهم أموالهم، وأُخرجوا من ديارهم.. أذن لهم في القتال، ردا للعدوان المتواصل، ودفاعًا عن الدين والوطن والدولة.. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠).

وعلى امتداد سنوات الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ بالمدينة المنورة اضطر المسلمون إلى خوض العديد من المعارك والمواقع والغزوات، بعد أن فَرض عليهم المشركون هذا القتال -الذي هو كره لهم-.. والذي لم يكونوا يتمنون اللقاء فيه!.. "لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله" (رواه الدارمي).

ومع عدالة "القتال الدفاعي" الذي اضطر إليه المسلمون.. ومع وقوفهم -في هذا القتال- عند حدود رد العدوان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠).. مع ذلك، فلقد وضع الإسلام لهذا "القتال الدفاعي" الضوابط والأخلاقيات التي صاغها رسول الله ﷺ "دستورًا للفروسية الإسلامية" ظهر إلى الوجود، ووضع في الممارسة والتطبيق لأول مرة في تاريخ الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان:

فلا يجوز قتال قوم إلا بعد إعلانهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾(الأنفال:٥٨).

ولقد طبق المسلمون هذا التشريع القرآني.. "فما قاتل رسول الله ﷺ قومًا حتى يدعوهم" (رواه الإمام أحمد والطبراني). والقتال -فقط- ضد المقاتلين.. ولا يتوجه إلى المسالمين غير المقاتلين من الكفار والأعداء.. ولذلك "نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والولدان" (رواه الإمام مالك).

وسَنّ الإسلام والمسلمون "دستورًا" لأخلاقيات الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرنًا؛ فحرّم الخيانة في المغانم، والسرقة من أموال المحاربين، وحرم الغدر حتى بالأعداء، أثناء القتال وحرم التمثيل بجثث القتلى، احترامًا لكرامة جثث القتلى الأعداء! وجاءت أوامر الرسول ﷺ للمقاتلين تقرر معالم هذا الدستور: "اغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغُلُّوا (تخونوا) ولا تغدروا ولا تَمْثُلوا ولا تقتلوا وليدًا" (رواه مسلم).

كما أعطى هذا الدستور -دستور الفروسية الإسلامية- الأمن والأمان للرهبان والنساء والصبيان والشيوخ.. أي لكل من لا ينخرط في قتال المسلمين. بل أعطى هذه الحرمة حتى للبيئة والمزروعات، أي لكل ألوان "العمران".

ولقد صاغ أبو بكر الصديق ﷺ -الخليفة الأول- الوصايا العشر لهذا الدستور، عندما قال لأمير جيشه "يزيد بن أبي سفيان" وهو ذاهب إلى الشام لتحريره من الغزاة الرومان:

"إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له.. وإني موصيك بعشر:

١. لا تقتلن امرأة،

٢. ولا صبيًّا،

٣. ولا كبيرًا هرمًا،

٤. ولا تقطعن شجرًا مثمرًا،

٥. ولا تخرّبن عامرًا،

٦. ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة،

٧. ولا تحرقن نخلاً،

٨. ولا تفرقنّه،

٩. ولا تغلل،

١٠. ولا تجبن" (رواه الإمام مالك).

ولأن المسلمين قد جعلوا الحرب "جراحة مفروضة.. ومكروهة": ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦).. فلقد وقفت حصيلة قتلى كل الغزوات -على عهد رسول الله ﷺ- تلك التي هُزم بها العدوان.. وانتصر بها الإسلام -عند ٣٨٦ قتيلاً- منهم ١٨٣ شهيدًا مسلمًا.. و٢٠٣ هم قتلى المشركين..!! بينما أحصى الفيلسوف الفرنسي "فولتير" (١٦٩٤-١٧٧٨م) ضحايا الحروب الدينية النصرانية بين الكاثوليك والبروتستانت -أي داخل النصرانية الأوروبية- فقال: إنهم عشرة ملايين أي ٤٠٪ من شعوب وسط أوربا.

الروح والمادة
في الأمن المجتمعي

- الربط التفاعلي بين المقوم الروحي والمادي
- الأمن وعاء إقامة الدين وتحقيق المعاش
- تحقيق الأمن فريضة اجتماعية

الإيمان هو الذي يحقق للإنسان الانتماء إلى هذا الوجود، ويقوده إلى رحاب المعية الإلهية وحضرتها القدسية، فيأنس بهذه المعية وينجو من غول الاغتراب الذي يفترس أمن الإنسان في المجتمعات المادية والوضعية واللادينية.

الروح والمادة في الأمن المجتمعي

بالأمن الاجتماعي والمجتمعي يزدهر العمران الإنساني، وبغيبته يتراجع هذا العمران. وإذا كانت المقومات الضرورية لتحقيق الأمن الاجتماعي والمجتمعي كثيرة ومتعددة، فإن في مقدمة هذه المقومات يأتي الأمن الديني والروحي والفكري، والأمن على مقومات المعاش المادي في دنيا الإنسان.

فبدون الإيمان ومن ثم الأمن الديني والعقدي والفلسفي، يلتهم الخوف والفزع والقلق والاغتراب استقرارَ الإنسان وطمأنينته. ذلك لأن الإيمان (الديني) هو الذي يحقق للإنسان الانتماء إلى هذا الوجود، ويقوده إلى رحاب المعية الإلهية وحضرتها القدسية، فيأنس بهذه المعية وينجو من غول الاغتراب الذي يفترس أمن الإنسان في المجتمعات المادية والوضعية واللادينية.

ففي غاية التحديات الشرسة والكوارث والأمراض والحروب، وفي مواجهة المظالم والقهر والجبروت، يكون الإيمان (الديني) -ومن ثمراته الانتماء والاحتماء بالمعية الإلهية- طوق النجاة للإنسان من الوحدة المخيفة والقاتلة، ومن الاغتراب القاتل للروح والآمال والطاقات والإمكانات.

ولهذه الحقيقة لا يعرف المؤمنون الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان اليأسَ ولا القنوطَ ولا الانتحار، مهما كبرت مشكلاتهم المادية والمعاشية؛ بينما تشهد المجتمعات المادية والوضعية -مع ارتفاع مستويات المعيشة والرعاية الصحية والإشباع للغرائز والشهوات- أعلى مستويات القلق ومعدلات الانتحار.. وذلك لفقدان الأمن على الغد، والأمل فيما بعد ظاهر الحياة المادية، بعد تخمة البطون والإفراط في إشباع الغرائز والشهوات.

الذين يقارنون إحصاءات العيادات النفسية وزوارها وانتشار القلق، وكثرة المنتحرين في المجتمعات الإسكندنافية -مثلاً- حيث أعلى مستوى معيشة في العالم، وحيث الإشباع المفرط للغرائز الجنسية، بنظيرة هذه الإحصاءات في مجتمع مؤمن تطحنه مشكلات الفقر والعوز يدركون حقيقة وأهمية عامل الأمن الروحي بالنسبة للإنسان. وذلك عندما يحقق هذا الإيمان للإنسان المؤمن الانتماء إلى القوة الأعظم في هذا الوجود والاحتماء بطلاقة قدرتها، ويسلحه بمعية هذه القوة الأعظم، حتى ليحقق هذا الإيمان والانتماء للأشعث الأغبر سلطانًا يجعله إذا أقسم على الله أبرّه الله.

الربط التفاعلي بين المقوم الروحي والمادي

ومن عظمة الفلسفة الاجتماعية في الإسلام ربطها -الربط الجدلي والتفاعلي- بين هذا المقوّم الأول من مقومات الأمن الاجتماعي، أي المقوم الإيماني والروحي والفكري، وبين المقوم الثاني -المادي- المتمثل في الأمن الإنساني على المقومات المعيشية اللازمة له في هذه الحياة الدنيا. بل إن هذه الفلسفة الاجتماعية الإسلامية تبلغ القمة في العظمة عندما تجعل الأمن على المعاش المادي هو الشرط الضروري

لتحقيق كمال واكتمال الأمن الديني والروحي للإنسان في هذه الحياة. وذلك عندما تقرر هذه الفلسفة الاجتماعية أن "صلاح الدين" مؤسس على "صلاح المعاش" وتوفر الضرورات والحاجات المادية للإنسان.. فـ"الواقع" يخدم "المثال" ويقيم معه علاقة جدلية.

وبعبارة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (١٠٨٥-١١١١م): "فإن نظام الدين لا يحصل إلا بانتظام الدنيا. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن...".

ثم يستطرد الغزالي فيقول: "ولعمري إن من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلَمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟ فإذن، بان أن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين".[1]

فالأمن الاجتماعي والاطمئنان على توافر وسلامة مقومات الاجتماع البشري والعمران الإنساني، المادية والمعنوية من صحة البدن إلى بقاء الحياة إلى حاجيات الكساء والمسكن والأقوات إلى الأمن، الذي ينفي عن الحياة الإنسانية عوامل الخوف والروع والفزع... جميع ذلك قد سلكته الرؤية الإسلامية في عداد "الضرورات" و"الحاجيات"، لا مجرد "الحقوق" أو "الكماليات"، ثم جعلته " الفريضة" التي تترتب على إقامتها

[1] الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي، ص:١٣٥، القاهرة.

فرائض الدين وشعائر العبادات.

وبعبارة الشيخ المجدّد محمد الغزالي (١٩١٧-١٩٩٦م): "لقد رأيت -بعد تجارب عدة- أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة. إنه من العسير جدًّا أن تملأ قلب الإنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان جسده عاريًا. إنه يجب أن يؤمَّن على ضروراته التي تقيم أَوَدَه كإنسان، ثم يُنتظر أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان. فلابد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقًا في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين حقًا في هداية الناس لرب العالمين".[1]

الأمن وعاء إقامة الدين وتحقيق المعاش

وإذا كان الإيمان (الديني) بما يثمره من طمأنينة روحية وفكرية وفلسفية، هو المقوم الأول من مقومات الأمن الاجتماعي، وإذا كان مقام هذا المقوم من مقومات الأمن الاجتماعي والمجتمعي قد جعله واحدًا من المقاصد العظمى للشريعة الإسلامية -الحفاظ على الدين- وجعل العدوان عليه والفتنة فيه موجبًا للقتال إذا فرض الأعداء على المؤمنين الفتنة في الدين، فلقد جعل الإسلام -كذلك- الحفاظ على الأمن -المال والوطن- الذي هو وعاء إقامة الدين وتحقيق المعاش.. جعل الحفاظ على ذلك مبررًا لوجوب القتال إذا فرض الأعداء على المؤمنين الحرمان من ثرواتهم وأموالهم أو الخروج من ديارهم.

---

[1] الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية، لمحمد الغزالي، ص:٦١-٦٢، القاهرة.

فالدفاع عن حرية الدين والتدين سبب في وجوب الجهاد القتالي، والدفاع عن المعاش وعن الوطن الذي هو وعاء الأمن على المعاش، سبب هو الآخر للجهاد القتالي، بل إنهما السببان الوحيدان للقتال في الإسلام: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠)...

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "مَن قُتل دون مالِه فهو شهيدٌ، ومَن قُتل دون دينه فهو شهيدٌ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيدٌ، ومن قُتل دون أهله فهو شهيدٌ" (رواه الترمذي).

تحقيق الأمن فريضة اجتماعية

فالمال مال الله، والناس مستخلفون فيه، يتملكون ويستثمرون ويتمتعون -كوكلاء ونواب- في حدود ضوابط عقد وعهد الاستخلاف، التي تحددت في قول الله ﷻ: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(الحديد:٧).

وفي تفسيرها يقول الإمام الزمخشري (١٠٧٥-١١٤٤م) في كتاب "الكشاف": "إن مراد الله في هذه الآية هو أن يقول للناس: إن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله، بخلقه وإنشائه لها، وإنما موَّلكم إياها وخوّلكم الاستمتاع بها، وجعلهكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي أموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب".[1]

وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) الذي نبّه

[1] الكشاف، للزمخشري، جـ:٤، ص:٦١، القاهرة، ١٩٦٧م.

على دلالات إضافة القرآن الكريم مصطلح "المال" إلى ضمير "الجمع" في سبع وأربعين آية، بينما لم يضفه إلى ضمير "الفرد" إلا في سبع آيات، وذلك "لينبه الله بذلك على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم إنما هو مال أمتكم".[1]

ولذلك كان نصيب الفقراء في الأموال والثروات "حقًّا"، وليس "منَّة" من الأغنياء، لأن الكافة مستخلفون في مال الله الذي خلقه وسخره للكافة: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾(الرحمن:١٠).

ولأن الحفاظ على النفس والحياة هو مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية لا يجوز التفريط فيه، وجب الجهاد -ولو بالقتال- لتحصيل ما تحفظ به الحياة الإنسانية. وقال الإمام ابن حزم الأندلسي (٩٩٤-١٠٦٤م): "وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد، أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا فيء أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يُكِنُّهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارّة.

فالأمن على المعاش قضية مجتمعية، لا تُترك -فقط- لنوايا الأفراد ومبادراتهم؛ لأن إقامة هذا الأمن وتحقيقه فريضة اجتماعية، يتوجه التكليف فيها إلى المجتمع الذي تقوم مؤسساته بإقامتها، ومنها مؤسسة الزكاة ومؤسسة الوقف ومؤسسات الصدقات والتكافل الاجتماعي...

فإذا غاب دور هذه المؤسسات المجتمعية عن الساحة أو قصرت في

---

[1] الأعمال الكاملة، للإمام محمد عبده، جـ:٥، ص:١٩٤.

إقامة هذه الفريضة، وجب على السلطة والدولة القيام بهذه الفريضة؛ لأننا بإزاء "فريضة" لا يجوز التفريط في إقامتها، وليست مجرد "حق" يجوز التنازل عنه حتى طواعية واختيارًا.. فالظلم حرامٌ وممنوعٌ ومؤثَّم ومجرَّم حتى ولو كان ظلمًا للنفس، وليس فقط للآخرين. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(النساء:٩٧). كما أنه على الكافة من القادرين الجهاد لإخراج المستضعفين من الاستضعاف: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾(النساء:٧٥).

الموسوعية والموسوعات في الحضارة الإسلامية

- ظاهرة العلماء الموسوعيين
- فن التأليف الموسوعي

رسالة الموسوعات في الحضارة الإسلامية هي الحفاظ على العقل الموسوعي الذي يسترشد بالقسمة الموسوعية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم في العقل الفردي والجمعي والحضاري لأمة الإسلام.

الموسوعية والموسوعات في الحضارة الإسلامية

من بين دفتي القرآن الكريم ومن سوره وآياته، ولدت الأمة الإسلامية وكل مقوماتها؛ من العقيدة إلى الشريعة إلى منظومة القيم والأخلاق.

ولأن القرآن الكريم منهاج شامل وكامل للدنيا والآخرة، للدين والدولة، للفرد والطبقة والأمة، للذات والآخر: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢-١٦٣). كان هذا القرآن الكريم، المنهاج الذي يكوّن العقل الموسوعي الذي لا يسجن طاقاته في التخصص والضيق والجزئي والمحدود.. يكوّن العقل الذي ينظر كيف بدأ الخلق، وكيف كانت المسيرة الإنسانية للأمم والشعوب والحضارات والنبوات والرسالات عبر التاريخ، ليعتبر بالسنن الإلهية التي حكمت الرحلة البشرية عبر هذه القرون.

ثم هو العقل الذي لا يعيش في الماضي مهاجرًا إلى قرونه وتجاربه حبيسًا فيها، وإنما هو العقل الذي يستلهم هذا الماضي ومواريثه ليفقه الواقع الحي والمتجدد الذي يعيش فيه، ومن ثم يمد بصره وبصيرته إلى المستقبل القريب والبعيد. ليس -فقط- المستقبل في عالم الشهادة بهذه

الحياة، وإنما فيما وراء وما بعد هذه الحياة، أي إنه العقل الجامع -في موسوعيته- للبدء والمسيرة والمصير...

ولهذه الخصيصة الموسوعية للمنهاج القرآني، كانت آيات الوحي الإلهي التي نزل بها الروح الأمين -جبريل عليه السلام- على قلب الصادق الأمين -محمد بن عبد الله- عليه الصلاة والسلام، بمثابة "النواة" أو "الحجر" الذي أُلقي به في "البحيرة" لتنداح من حوله الدوائر المتعددة والشاملة لكل مناحي الحياة ومقوماتها. لقد انداحت من حول هذه "النواة" كل مقومات الدين والدولة والثقافة والمدنية والحضارة... وكل دوائر النور التي أضاءت حياة الإنسان الذي آمن بهذا القرآن الكريم.

كما أحيا هذا الإنسان الأرض الموات، فازدانت حياته "بالمدنية" التي هي عمران الواقع المادي، كذلك تهذبت ملكاته الروحية "بالثقافة" التي هي عمران النفس الإنسانية. ومن "الثقافة" و"المدنية" ومن تراكُم معارفِهما بمرور التاريخ، تكونت الحضارة الإسلامية التي هي إبداع مدني أثمره هذا الوحي وهذا الدين.

ظاهرة العلماء الموسوعيين

وبسبب من هذا المنهاج الموسوعي الذي يثمره الفقه والتدبر لهذا القرآن الكريم، تميزت الحياة العلمية والإبداع الفكري في الحضارة الإسلامية "بظاهرة العلماء الموسوعيين" الذين جمعوا -في إبداعاتهم- بين "عمق التخصص" وبين "شمولية الموسوعية"... فلم تقع عقولهم فريسة "لسجن التخصص" كما أنها لم تصب بالسطحية التي تفهم خطأ من "الموسوعية".

وإذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على الإبداعات الموسوعية التي أثمرتها عقول علماء هذه الأمة، الذين مثّل الواحد منهم موسوعة شاملة لمختلف العلوم والفنون، والذين برئت عقولهم وإبداعاتهم من الفصام النكد بين "عمق التخصص" وبين "الموسوعية".. فتميزت موسوعيتهم بالشمول لميادين الإبداع في علوم المادة وعلوم الروح، في علوم الدين وعلوم الدنيا، في عالم الشهادة وفي معارف الغيب، في المنقول والمعقول، في الفلسفة العقلية ومنظومة القيم والأخلاق.

إذا أردنا أن نضرب بعض الأمثال على هذه القسمة الموسوعية في تراثنا الفكري والعلمي، فسنجد على سبيل المثال:

• حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) الذي مثل "ظاهرة فكرية" لعلوم عصره؛ من الفقه إلى الأصول إلى الفلسفة إلى التصوف وعلم القلوب والسلوك.

• وأبو الوليد بن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) الذي كان الناس يفزعون إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إلى فتواه في الطب، والشارح الأكبر لأرسطو والمتفرد بالكتابة في فلسفة اختلاف الفقهاء وفي علم الكلام، والجامع بين علوم المعقول والمنقول، والمقاصد والوسائل... حتى لقد كان فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء.

• ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م) الذي كان "الشيخ الرئيس" في الشرعي والمدني، في الإلهيات والطبيعيات، في التصوف وفي النبات والحيوان.

• والبغدادي -أبو منصور عبد القاهر- (١٠٣٧م) الذي جمع بين أصول الدين والهندسة والحساب...

• والخيام -أبو الفتوح، عمر بن إبراهيم- (١١٢١م) الذي كان موسوعة

في اللغة والشعر والفلسفة والتصوف والفقه والتاريخ والفلك والهندسة والرياضيات...

• والفخر الرازي (١١٥٠-١٢١٠م) الذي جمع بين علوم الدين والدنيا؛ من التفسير إلى الفلسفة إلى الكلام إلى الأصول... حتى قال مؤرخوه: "إنه كان أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل"...

وغيرهم آلاف من العلماء والموسوعيين.

فن التأليف الموسوعي

ولم تقف "القسمة الموسوعية" في الحضارة الإسلامية عند إبداع "العقل والموسوعي"، وإنما أثمرت أيضًا "فن التأليف الموسوعي" الذي اشتهر به العديد من العلماء الذين توفروا على تأليف وتصنيف الموسوعات التي تجمع شتات العلوم والمعارف والفنون والآداب، لتزكي وتنمي "القسمة الموسوعية" لدى طلاب العلم والباحثين والقراء والمتأدبين.

فعرفت حضارتنا موسوعات "الطبقات" التي أرخت لحياة العلماء الأعلام وإبداعاتهم في مختلف مناحي العلوم والفنون، وموسوعات "الخطط" التي أرخت المواقع والمكان والمؤسسات والثروات والتجارات والخانات والرحلات وأنماط المعاش والعادات، وموسوعات "كشافات المصطلحات" في مختلف ميادين المعارف والعلوم والفنون، وموسوعات "اللغة" وعلومها، والموسوعات التي توفرت على "علوم القرآن الكريم" و"علوم السنة النبوية الشريفة"...

فمن "طبقات" ابن سعد (٧٨٤-٨٤٥م) إلى "الفهرست" لابن النديم (١٠٠٠م) إلى "العين" للخليل بن أحمد (٧١٨-٧٨٦م) إلى "إحياء علوم

الدين" للغزالي (١٠٥٨-١١١١م) إلى "العقد الفريد" لابن عبد ربه (٨٦٠-٩٤٠م) إلى "الأغاني" لأبي فرج الأصبهاني (٨٩٧-٩٦٧م) إلى "التعريفات" للجرجاني (١٣٤٠-١٤١٣م) إلى "لسان العرب" لابن منظور (١٢٣٢-١٣١١م) إلى "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري (١٢٧٨-١٣٣٣م) إلى "معجم البلدان" و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي (١١٨٠-١٢٢٩م) إلى "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير (١١٦٠-١٢٢٣م) إلى "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البر (٩٧٨-١٠٧١م)... آلاف وآلاف الموسوعات التي أصبحت "فنًا" من فنون التأليف في حضارة الإسلام، والتي نهضت برسالة "خَلْق العقلية الموسوعية" لدى طلاب العلم والقراء، وذلك حتى لا يصبح العقل سجينًا للتخصص المحدود.

فبعد عصر التدوين مر العلم والفكر -في حضارتنا- بطور "التخصص" الذي انقسم فيه العلم الواحد إلى عدة علوم. ولقد كانت هذه الموسوعات هي السبيل إلى جمع أطراف المعارف في هذه العلوم، لمساعدة العقل المسلم على أن يظل متكاملاً، وأن يتمكن طالب العلم الإسلامي من تكوين "العين للأمة" التي تنقذ العقل من النظرة الأحادية التي تقيم فصامًا نكدًا بين صاحبها وبين مختلف عوالم العلوم والمعارف والفنون والآداب.

وبعد نكبة الغزوة المغولية (١٢٥٨م) التي دمرت الكثير من ذخائر المكتبات الإسلامية في الحواضر التي اجتاحها المغول، والتي أحدثت "شرخا" في "الذاكرة الإسلامية"، قامت الموسوعات -في العصر الأيوبي والمملوكي- بجمع شتات الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية والفنون والآداب، فحفظت للذاكرة الإسلامية التواصل مع المنابع والأصول والجذور.

تلك كانت رسالة الموسوعات في الحضارة الإسلامية: الحفاظ على

العقل الموسوعي الذي يسترشد بالقسمة الموسوعية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم في العقل الفردي والجمعي والحضاري لأمة الإسلام.

الاجتهاد الإسلامي

- دواعي الاجتهاد
- أدلة مشروعية الاجتهاد
- حكم الاجتهاد ومراتبه
- الاجتهاد الجماعي

مع تعقُّد شؤون الواقع الجديد، وتشعُّب علوم الشريعة والحضارة إلى تخصصات كثيرة ودقيقة، كانت الحاجة إلى "الاجتهاد الجماعي" الشكل الأنسب للعصر الذي نعيش فيه.

الاجتهاد الإسلامي

الاجتهاد -كالجهاد- من جَهَدَ، وهو لغة: استفراغ الوُسْع في تحصيل أمر مُستلزِم للكلفة والمشقة. واستفراغ الوُسْع معناه: بذل تمام الطاقة، بحيث يحس المجتهد من نفسه العجز عن المزيد عليه. وفي اصطلاح الأصوليين: استفراغ الفقيه الوُسع لتحصيل ظن بحكم شرعي. فالمجتهد هو الذي تكون لديه ملكة الاقتدار على استنباط الفروع من الأصول.

والأسباب التي تُمكن المجتهد من الاجتهاد في العلوم الشرعية -وكذلك في العلوم العقلية- كثيرة، تفاوت تعدادها لدى بعض العلماء. لكن يجمعها سببان أو شرطان:

أ- معرفة الأصول كتابًا وسنة.

ب- معرفة الاستنباط من الأصول بالقياس.

هذا في الشرعيات، والحلال والحرام. أما في العقليات، فالسببان هما:

أ- معرفة الأوائل العقلية.

ب- ومعرفة وجه الاستنباط منها.

أما تفصيل شروط المجتهد، كما حددها علماء الأصول فهي:

١- التمكن من اللغة العربية إلى الحد الذي تتحصل للمجتهد القدرة على إدراك أسرار البيان القرآني المعجز ومقاصد السنة النبوية الشريفة.

٢- الفهم والتدبر لآيات الأحكام في القرآن الكريم والتي تبلغ الخمسمائة آية.

٣- رسوخ القدم في السنة النبوية وعلومها رواية ودراية سندًا ومتنًا، وعلى الأخص ما جاء في صحاحها ومجاميعها ومسانيدها من أحاديث الأحكام التي قدَّرها البعض بثلاثة آلاف حديث.

٤- المعرفة المحيطة بالناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق المقيد في آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الشريفة.

٥- المعرفة بأصول الفقه واجتهادات أئمته فيه ومسائل الإجماع والقياس فيه.

٦- الحذق لروح التشريع الإسلامي ومقاصد الشريعة الإسلامية حتى تتحصل للمجتهد ملكة الجمع والمقارنة بين النصوص المتعددة -والتي قد تبدو أحيانًا مختلفة أو متناقضة- في المسألة الواحدة، والخروج منها بالحكم المحقق للمقاصد وروح التشريع.

ولقد تبدو هذه الشروط عزيزة الوجود والتحقق والاجتماع في العالم الفرد، في عصر التخصصات الدقيقة والجزئية -للعلوم- الذي نعيش فيه. لكنّ تطوّر أدوات ووسائل الطباعة والتوثيق والفهرسة والتخزين للمعلومات قد يسهل أمور الاجتهاد وييسر اجتماع شروطه لعماء اليوم أكثر مما كان ذلك ميسورًا قبل هذا التطور في سبل البحث العلمي ووسائله.

دواعي الاجتهاد

ودواعي الاجتهاد في الشريعة الإسلامية التي جعلته ضرورة من ضروراتها وقانونًا وسنة من قوانينها وسننها كثيرة، منها:

أ- خلود الشريعة الإسلامية لختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، الأمر الذي يقتضي الاجتهاد المحقِّق لصلاحها لمختلف العصور. فغيبة الاجتهاد يقف بها عند تلبية احتياجات عصور دون الأخرى، الأمر الذي يهددها بالجمود الذي يعجزها عن تلبية حاجات العصور المتتالية، والتي هي بحكم سنة التطور متغيرة ومتجددة.

ب- عموم الرسالة المحمدية -ومن ثم شريعتها- للعالمين. الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لتلبية اجتياجات البيئات المختلفة والعادات المتغايرة والأعراف المتمايزة، للبلاد والأمم والأجناس المختلفة.

جـ- طروء البدع -بالزيادة والنقصان- على أحكام الشريعة، بمرور الأزمان، وخاصة في عصور الضعف والجمود. الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لجلاء الوجه الحقيقي لأحكام الشريعة ومقاصدها.

د- تناهي نصوص الأحكام -في الكتاب والسنة- ولانهائيةُ المشكلات الحادثة للناس عبر الزمان والمكان، الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لاستنباط الفروع الجديدة من الأصول الثابتة، لتستظل بهذه الفروع الجديدة مساحات من الوقائع والمشكلات لم تكن موجودة من قبل.

هـ- التطور، الذي هو سنة من سنن الله في خلقه، في الإنسان والحيوان والنبات والجماد والأفكار، والذي يستدعي الاجتهاد لينمو القانون الإسلامي فيواكب ثمرات التطور ويلبي حاجاته في مختلف ميادين الحياة.

أدلة مشروعية الاجتهاد

أما الأدلة على شرعية الاجتهاد من الكتاب والسنة فإنها كثيرة:

فآيات القرآن التي تحدثت عن فعل العقل والتعقل هي تسع وأربعون

آية. وآياته التي تحدثت عن القلب -ومن وظائفه التفكير والتعقل- تبلغ مائة واثنين وثلاثين آية. ولقد ورد الحديث في القرآن عن "اللب" بمعنى العقل، لأنه جوهر الإنسان وحقيقته في ستة عشر موضعًا. وجاء الحديث فيه عن "النُّهى" (بمعنى العقل) في آيتين. أما التفكر، فلقد جاء الحديث عنه بالقرآن في ثمانية عشر موضعًا. وجاء الحديث فيه عن "الفقه" في عشرين موضعًا. وجاء حديثه عن "التدبر" في أربع آيات، وعن "الاعتبار" في سبع آيات. وعن "الحكمة" في تسع عشرة آية. الأمر الذي يجعل رصيد الاجتهاد في القرآن الكريم رصيدًا ضخمًا وغنيًّا. ففيما يقرب من الثلثمائة آية يأتي الحديث الذي يحث على الاجتهاد ويزكيه.

أما السنة النبوية، فإن مأثوراتها التي تزكي الاجتهاد وتحض عليه -صراحة أو ضمنا- هي الأخرى كثيرة حتى لتستعصي على الحصر الدقيق.

فالرسول ﷺ يدعو إلى الاجتهاد في فهم آيات القرآن اجتهادًا يصل بنا إلى ما وراء ظواهر النصوص: "أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين" و"من أراد العلم فليثور القرآن" (رواه الطبراني). وإذا دعا لحبر الأمة (ابن عباس) قال: "اللهم فقهه في الدين" (رواه مسلم)، لأن "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين" (متفق عليه).

وهو عندما يسأل مبعوثه وقاضيه إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه:

- "بم تقضي؟"

فيجيبه: بكتاب الله. يعاود سؤاله:

- "فإن لم تجد في كتاب الله؟"

فيجيبه: أقضي بما قضى به رسول الله. فيعاود سؤاله:

- "فإن لم تجد فيما قضى به رسول الله؟"

فيجيبه: أجتهد برأيي.. وعند ذلك يقول الرسول ﷺ:

- "الحمد لله الذي وفق رسول رسوله" (رواه أبو داود والترمذي).

بل إنه ليشجع على الاجتهاد حتى ليحدثنا عن أن المجتهد مأجور على مطلق الاجتهاد، حتى ولو لم يصادف اجتهاده الصواب "من اجتهد برأيه فأصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد" (رواه البخاري).

حكم الاجتهاد ومراتبه

والاجتهاد قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، وقد يكون مندوبًا، وذلك وفق مقام الاجتهاد والحاجة إليه والحكم الذي يستنبطه المجتهد بالاجتهاد، وتعلُّق هذا الحكم بذات المجتهد أو بالآخرين.

وميدانه ما ليس معلومًا من الدين بالضرورة، مما اتفقت عليه الأمة من الشرع الجلي الذي ثبت بالنصوص قطعية الدلالة والثبوت. أما مراتب المجتهدين فإنها ثلاثة:

الأولى: رتبة المجتهد المطلق؛ وهو الذي "يستنبط" الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة.

الثانية: رتبة مجتهد المذهب؛ وهو من "يستنبط" الأحكام من "قواعد" إمام مذهبه.

الثالثة: رتبة مجتهد الفتوى؛ وهو المقتدر على "الترجيح" في "أقوال" إمام مذهبه.

والذي جرى عليه الرأي في مبحث الاجتهاد -في الحضارة الإسلامية- هو عدم خلو العصر -كل عصر- ممن ينهض بأداء فريضة الاجتهاد. وللإمام جلال الدين السيوطي كتاب جعل عنوانه: "الرد على من أخلد

إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض" قال في مقدمته: "إن الناس قد غلب عليهم الجهل وعمهم، وأعماهم حب العناد وأصمهم، واستعظموا دعوى الاجتهاد، وعدّوه منكرا بين العباد، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات في كل عصر، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر".

الاجتهاد الجماعي

لكن الذي حدث للاجتهاد عبر مسيرتنا الحضارية، أن ميادين من إبداع العقل الإسلامي في الفكر الإسلامي قد أصابها الجدب، فأصيبت ثمراتها بالذبول. فمنذ الانقلاب الأموي على فلسفة الشورى ضمرت إبداعات الأمة واجتهاداتها في الفقه الدستوري والفكر السياسي الذي يحدد أطر وضوابط علاقة الحاكم بالمحكوم؛ على حين نمت وازدهرت إبداعات الفكر واجتهاداته في الميادين الأخرى.

فلما طال الأمد بالخطر الخارجي تتاريًّا وصلِيبيًّا، وطال الأمر بدول العسكر المماليك، التي مثلت فروسية العصر اللازمة للدفاع عن وجود الأمة والحضارة إزاء هذا الخطر الخارجي، وجلب المماليك شريعة مواطنهم الأصلية "ياسة" جنكيز خان فجعلوها قانون العسكر (أي الطبقة الحاكمة) والدواوين السلطانية (أي دوائر الدولة) تراجعت مكانة "فقه المعاملات" الإسلامي، فذبل، ثم توقف الإبداع والاجتهاد فيه، وهذا هو الذي أدى إلى ما يسميه البعض إغلاق باب الاجتهاد، حتى جاء عصرنا الحديث ولدينا ثراء وغنى في "فقه العبادات" والشعائر الدينية، يصاحبه فقر شديد في "فقه المعاملات" و"الفكر السياسي" اللازم لمواكبة الواقع

الجديد والمستحدثات من الأمور.

الأمر الذي يبرز حاجتنا الماسة إلى تنشيط الاجتهاد في "فقه الواقع" السياسي والاقتصادي والاجتماعي ليتسنى لأصول شريعتنا الفروع التي تظلل وتحكم وتصبغ بالإسلام هذا الواقع الجديد.

وربما مع تعقُّد شؤون الواقع الجديد، وتشعُّب علوم الشريعة والحضارة إلى تخصصات كثيرة ودقيقة، كانت الحاجة إلى "الاجتهاد الجماعي" الشكل الأنسب للعصر الذي نعيش فيه.

المنهاج النبوي
في المداعبة والمزاح

- تحديد المصطلحات والمفاهيم
- مع مصطلح الوسطية
- الرسول القدوة
- حول مفهوم الملحة والطرفة والنكتة والمزح
- الإنسان الكامل
- صور من مزاحه ﷺ

إن حياة الرسول ﷺ وأسوته وقدوته لم تخلُ من المُلح والطرائف والنكات التي نهضت بمهام الترويح عن النفس وتجديد ملكات وطاقات القلوب، والإعانة على جد الحياة وصعابها مع التزام الحق والصدق والعدل، أي الوسط والوسطية المتميزة عن الغلو إفراطًا كان أو تفريطًا.

المنهاج النبوي
في المداعبة والمزاح

الإسلام دين الوسطية، ولقد شاء الله ﷻ أن تكون هذه الوسطية "جَعْلاً إلهيًّا"، وليس مجرد خيار من خيارات المؤمنين بالإسلام، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). ونحن نلاحظ أن هذه الآية الكريمة قد جعلت الوسطية علة وسببًا يترتب عليه اتخاذ الأمة الإسلامية موقع "الشهود" على العالمين، بما في هذا العالمين من أمم وشعوب وملل ورسالات وثقافات وحضارات.. وذلك التعليل وثيق الصلة بمعنى "الوسطية" ومعنى "الشهود".. فالوسط -كما علمنا رسول الله ﷺ- هو العدل. والعدل هو الشرط المؤهل للشهادة والشهود على العالمين. ولأن هذه الأمة الخاتمة قد آمنت بكل النبوات والرسالات والكتب السماوية، كانت وحدها المؤهلة عدالتُها بالشهادة على العالمين، بما في ذلك الشهادة على تبليغ كل الرسل رسالاتهم إلى أمم هذه الرسالات.

تحديد المصطلحات والمفاهيم

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أنه "لا مُشاحَّة في الألفاظ

والمصطلحات"، فإن انتفاء هذه "المشاحة" واقف فقط عند استخدام هذه الألفاظ وهذه المصطلحات، أما المضامين والمفاهيم المقصودة من وراء استخدام هذه المصطلحات فإن فيها الكثير والكثير جدًّا من المشاحات، وخاصة عندما تتعدد -وأحيانًا تتناقض- المفاهيم المرادة من وراء المصطلح الواحد؛ بسبب تعدد الثقافات والحضارات والفلسفات والمواريث.

فمصطلح "الدين"، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب، لكن مفهومه ومضمونه عند أهل "الديانات الوضعية" غيُره عند أهل الديانات السماوية. ومفهومه ومضمونه في الفلسفات المادية يعني: الإفراز الخرافي والأسطوري للعقل الإنساني في مرحلة الطفولة من تطور الإنسان؛ بينما يعني "الدِّين" في النسق الرباني: الوضع الإلهي الذي نزل به الوحي الأمين على الأنبياء والمرسلين، لسَوْق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الهداية والخير في الدينا والآخرة.

ومصطلح "السياسة"، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب والثقافات، لكنه يعني في الحضارة الوضعية الغربية: فن الممكن من الواقع تحقيقًا للقوة، وذلك بصرف النظر عن علاقة هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق؛ بينما يضبط النسق الإسلامي -في فلسفة السياسة- هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق. فالسياسة -في هذا النسق- هي "التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد". وفارق جوهري بين هذا المفهوم للسياسة، وبين مفهومها وفلسفتها الغربية عند "ميكيافيللي"، ذلك الذي شاع في فلسفة السياسة بالحضارة الوضعية الغربية ولا يزال شائعا وحاكما حتى هذه اللحظات.

"والإقطاع"، مصطلح تردده كل الأمم والشعوب، لكنه يعني في الحضارة

الغربية: ملكية الأرض ومن وما عليها؛ بينما هو في النسق الإسلامي: تمليك منفعة، لإحياء الأرض الموات، واستثمارها والانتفاع بها، وفق الضوابط التي وضعها -في الشريعة- مالك الرقبة في كل الأموال والثروات ﷻ.

مع مصطلح الوسطية

وكذلك الحال مع مصطلح "الوسطية"، الذي يعني -في "الفكر السُّوقي"- التَّميُّع وانعدام التحديد، وافتقار الموقف "الوسطي" إلى اللون والطعم والرائحة! والذي يعني في الفكر الأرسطي وفلسفة "أرسطو": الفضيلة بين رذيلتين، أي الموقف الثالث الذي هو بمثابة نقطة رياضية ثابتة بين قطبين، مع المغايرة الكاملة بين هذا الموقف الثالث (الوسطي) وبين هذين القطبين. ولكن المفهوم الإسلامي للوسطية ليس كذلك، فهي وسطية جامعة، تمثل موقفًا ثالثًا بين القطبين المتقابلين والمتناقضين، لكنها لا تغاير هذين القطبين مغايرة تامة، وإنما هي تَجمع منهما عناصرَ الحق والعدل لتكوِّن منها وبها هذا الموقف الوسطي الجديد. فهي في حقيقتها رفض للغلو الذي ينحاز إلى قطب واحد من هذين القطبين (غلو الإفراط أو غلو التفريط).

فوسطية الإسلام الرافضة للغلو المادي والغلو الروحي هي وسطية لا تغير المادة والمادية ولا الروح والروحانية كلية، وإنما هي الوسطية الجامعة لعناصر الحق والعدل من المادية والروحانية جميعًا، على النحو الذي يوازن توازن العدل بينهما. ولذلك فإنها (هذه الوسطية الإسلامية الجامعة) تصوغ الإنسان الوسط: راهب الليل وفارس النهار، الجامع بين الفردية والجماعية، بين الدنيا والآخرة، بين التبتل للخالق والاستمتاع

بطيبات وجماليات الحياة التي خلقها الله وسخرها لهذا الإنسان.

الرسول القدوة

ولأن النموذج والقدوة والأسوة تنهض بالدور الأول في ميدان التربية والتزكية والصياغة للإنسان والمجتمع والثقافة والحضارة، فلقد شاء الله ﷻ أن تكون القدوة والأسوة للأمة الوسط ذلك النبي الأمي الذي جسدت حياته أكمل نموذج لوسطية إسلامية جامعة يمكن أن يتحقق في دنيا الناس. لقد صنعه الله على عينه ليكون نموذج هذه الوسطية الإسلامية وقدوتها وأسوتها. فهو بشَر يوحَى إليه، بشر تجوز عليه كل عوارض البشرية، يولد ويمرض ويألم ويموت. وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ولا يأتي من الخوارق إلا ما آتاه الله. وفي ذات الوقت -ولأنه يوحى إليه-فلقد مثَّل رباط وارتباط الأرض بالسماء، وحلقة الوصل بين عالم الشهادة وعالم الغيب. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: "فإن روحه ﷺ ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية. فهو يشرف على الغيب بإذن الله، ويعلم ما سيكون من شأن الناس فيه، وهو في مرتبته العُلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهو في الدنيا كأنه ليس من أهلها، وهو وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها. يتلقى من أمر الله ويحدّث عن جلاله بما خفى عن العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه. معبرًا عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم. ثم هو بعد ذلك بشر يعتريه ما يعتري سائر أفراد البشر"، مما لا يقدح في مقتضيات رسالته.

لقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، فكان على خلق عظيم، وجَمعت حياته

وسياساته بين الاجتهاد الإنساني وبين الوحي المسدِّد للاجتهاد، والحاكم فيما لا يستقل به الاجتهاد. هو ﷺ العابد المتبتّل الذي يقف بين يدي مولاه حتى تتورم قدماه. وهو الذي جعل رهبانيته ورهبانية أمته الجهاد في سبيل الله، حتى لقد كان الفارس المقاتل الذي يحتمي به الفرسان إذا اشتد القتال وازداد البأس وحمي الوطيس واحمرت الحدق، فلا يكون أحد أقرب إلى الأعداء منه عليه الصلاة والسلام. ومع ذلك كان أشد حياء من العذراء في خدرها، ولقد جعل الحياء في شريعته شعبة من شعب الإيمان. كان أشجع الناس وأحلم الناس، كانت عبادته مجاهدة وجهادا، وكان جهاده عبادة وتقربًا إلى الله.

وفي قدوته وأسوته جمعت الوسطية بين قوة الصبر والمصابرة وبين ذروة الخشوع والخضوع في الصلاة ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥).

وكذلك جمعت قدوته وأسوته بين الرفق الرفيق بالإنسان -مطلق الإنسان- والحيوان والنبات والبيئة -بما في ذلك الجماد- لأنها جميعها حية تسبح بحمد خالقها -حتى وإن لم نفقه تسبيحها-، وبين الغضب الشديد لدين الله وحرمات الله وحدود الله. كما جمعت قدوته وأسوته بين زهد الغَنِيّ في متاع الدنيا وبين عشق الجمال الذي خلقه الله وبثه زينة في هذا الكون الجميل. فكانت وصاياه باختيار الاسم الحسن والاستمتاع باللهو الحلال والاستعاذة بالله -في دعاء السفر- من كآبة المنظر، ودعائه ربه في صلاة الاستسقاء: "اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها" (رواه الطبراني). كما جمعت وسطيته بين تفضيل الحياة مع المساكين -لا الملوك الجبارين والمترفين- وبين الرقة والزينة، حتى لقد جاء في صفاته وشمائله أنه "لم

تكن يد ألين من يده ولا ريح أطيب من ريحه أطيب رائحة من المسك. فكان وجهه يبرق من السرور. وكأن عرقَه اللؤلؤ" (رواه الإمام أحمد). كما جمعت وسطيته بين تبتل العابد عندما يعتكف بالمسجد وبين الزينة حتى أثناء الاعتكاف، فكان يناول رأسه لعائشة رضي الله عنها وهي في حجرتها لترجِّل له شعره، عليه الصلاة والسلام.

وهكذا جسدت القدوة والأسوة النبوية بهذه الوسطية الإسلامية الجامعة نموذج الإنسان الكامل الذي امتاز وتميز عن غلو الإفراط والتفريط.

وهذا النبي الأميّ الذي نهض لتغيير العالم في شؤون الدين والدنيا، وتقدم لتحويل مجرى التاريخ، ومفهوم الثقافة والحضارة، ومعنى إنسانية الإنسان. والذي كابد ما كابد -ثلاثة عشر عامًا في المرحلة المكية- وبنى الدولة وبلور الأمة وقاد من الغزوات والسرايا والبعوث ما زاد على الستين -في تسع سنوات من المرحلة المدنية-، هو الذي جمعت وسطيته بين هذه المجالدة والمكابدة وبين الترويح عن النفس لتجديد ملكات وطاقات هذه النفس؛ كي تستطيع النهوض بتبعات المجالدة والمكابدة والمجاهدة، وكي تستمتع بما خلق الله في هذه الحياة من ألوان الجمال وعوامل المتاع والاستمتاع.

حول مفهوم الملحة والطرفة والنكتة والمزح

وبين يدي هذه الإشارات واللمحات عن هذا الجانب من سيرة المصطفى ﷺ لابد من تحديد المعاني والمفاهيم لمصطلحات "المُلحة" و"الطرفة" و"النُّكتة" و"المزح" في اصطلاح العربية وثقافة الإسلام.

فالمُلْحَةُ: هي القول والفعل الذي فيه ظُرف. وفي أساس البلاغة:

"ومن المجاز: وجه مليح، ووجوه ملاح، وما أملح وجهه وفعله، وما أُمَيْلِحَه، وله حركات مستملَحة. وحدثتهُ بالمُلح. وفلان يتظرف ويتملّح". وفي لسان العرب: "عن ابن عباس ﷺ، قال رسول الله ﷺ: "الصادق يعطى ثلاث خصال: المُلحة، والمهابة، والمحبة". فالمُلحة: هي القول أو الفعل أو الحركات الظريفة التي تُكْسِب الحديث أو الموقف مُلحة وظُرفًا. وهو قصد زائد على الضروري من الأقوال والأفعال. والوسط فيها هو المحمود؛ لأنه بمثابة الملح للطعام؛ وسطه مفيد والإسراف فيه مفسد لأصل الطعام.

والطُّرْفة -وجمعها الطُّرَف- هي المُستحدَث المُعْجِب المُتْحِف، وكل شيء استحدثتَه فأعجبك. فهي القول أو الحركة أو الفعل الظريف الذي يضيف إلى المعنى ما يُعجب ويسر نفوس السامعين والمشاهدين.

والنُّكْتَة -وجمعها نُكت ونِكات- في معناها اللغوي: هي النقطة البيضاء في السواد أو النقطة السوداء في البياض. ومن معانيها: المسألة الدقيقة التي أُخرجت بدقةِ نظر وإمعانِ فكر. وهي في المجاز: المعنى غير المألوف والجملة اللطيفة، تؤثر في النفس انبساطا. ونُكتُ الكلام أسراره ولطائفه.

والمَزْح: هو الدعابة. ونقيض الجد. والمُزَّاح من الناس: هم الخارجون من طبع الثُّقلاء والمتميزون من طبع البُغَضَاء. فالمزاح هو تلوين الكلام أو الحركات بالدعابة التي تُكسبه ظُرْفًا يُخرجه عن صرامة الثقلاء وجفاف البُغَضاء. هذا عن التعريف بمضامين ومفاهيم هذه المصطلحات.

الإنسان الكامل

ولأن رسول الله ﷺ كان النموذج الأعظم للإنسان الكامل الذي تكاملت

في صفاته وشمائله وأفعاله الوسطيةُ الجامعة والتوازن العدل، فإن حياته وأسوته وقدوته لم تخلُ من المُلح والطرائف والنكات التي نهضت بمهام الترويح عن النفس وتجديد ملكات وطاقات القلوب، والإعانة على جد الحياة وصعابها مع التزام الحق والصدق والعدل أي الوسط والوسطية المتميزة عن الغلو إفراطًا كان أو تفريطًا.

إننا نطالع في السنة النبوية: أن رسول الله ﷺ كان يمزح أي يداعب أصحابه رجالاً ونساءً ولكنه لا يقول إلا حقًّا. حتى لقد قال له صحابته ﷺ: يا رسول الله، إنك تداعبنا! فقال: "إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقًّا" (رواه الترمذي والإمام أحمد). وفي صفاته وشمائله -من حديث علي بن أبي طالب ﷺ-: "كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخُلق، ليّن الجانب" (رواه البيهقي). ومن حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ﷺ: ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ" (رواه الترمذي).

وكان ﷺ يرى اللعب المباح ولا يكرهه. ولقد أفسح لفرقة من الأحباش تلعب وترقص -تَزْفِن- وتغني بمسجد المدينة، وسأل زوجه عائشة رضي الله عنها إن كانت تشتهي أن تشاهدهم وتستمتع بألعابهم ورقصاتهم وأغنياتهم، فوقفت خلفه وخدها على خده (في منظر إنساني رقيق) حتى اكتفت وانصرفت عنهم. وعندما دخل عمر بن الخطاب ﷺ المسجد وهمّ بنهر الأحباش، أوقفه رسول الله ﷺ وشجّع الأحباش على مواصلة اللعب قائلاً: "دونكم بني أرفدة، لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وأني أُرسلت بحنيفية سمحة" (رواه مسلم). ومن حديث جابر بن سمرة ﷺ: أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانًا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم، ولا يزجرهم إلا عن حرام (رواه مسلم). ومن

حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: ولربما ضحك ﷺ حتى تبدو نواجذه (متفق عليه). ومن حديث كعب بن مالك ﷺ: كان ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر (متفق عليه). ومن حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه (رواه ابن أبي شيبة).

ولقد روت عائشة رضي الله عنها فقالت: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة، فصنعتُ حريرة (عصيدة، تصنع من الدقيق واللبن والدسم) وجئت به، فقلت لسودة: "كلي". فقالت: "لا أُحب". فقلتُ: "والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك". فقالت: "ما أنا بذائقته". فأخذتُ بيدي من الصحفة شيئا منه فلطَّختُ به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض رسول الله ركبتيه لتستقيد مني، فتناولتْ من الصحفة شيئًا، فمسحتْ به وجهي، وجعل رسول الله يضحك" (رواه أبو يعلى).

وعن عائشة رضي الله عنها: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملتُ اللحم سابقني فسبقني، وقال "هذه بتلك" (رواه أبو داود). وعن أبي هريرة ﷺ: أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلاً دميمًا قبيحًا، فلما بايعه النبي ﷺ قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء -وكانت عائشة حاضرة، قبل أن تنزل آية الحجاب- أفلا أنزل لك -يا رسول الله- عن إحداهما فتتزوجها؟ فقالت عائشة: أهي أحسن أم أنت؟!. فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم. فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه -لأنه كان دميمًا- (رواه الدارقطني).

صور من مزاحه ﷺ

عن الحسن ﷺ: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فسألته أن يدعو الله لها بالجنة، فقال: "لا يدخل الجنة عجوز". فبكت، فقال: "إنك لست بعجوز

يومئذ"، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾(الواقعة:٣٥-٣٧)" (رواه الترمذي).

وعن زيد بن أسلم ﷺ قال: إن امرأة يقال لها أم أيمن، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك. فقال لها: "من هو؟ أهو الذي في عينه بياض؟" قالت: والله ما بعينه بياض. فقال: "بلى، إن بعينه بياضًا". قالت: لا، والله. فقال: "ما من أحد إلا وبعينه بياض" (ذكره الزبير بن بكار). وعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ فقال: "إني حاملك على ولد الناقة". فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة فقال رسول الله ﷺ: "وهل تلد الإبل إلا النوق" (رواه الترمذي). ومن حديث أنس بن مالك ﷺ: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير، وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول: "يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْز؟"، -والنُّغَيْز: فرخ العصفور، كان يلعب به الغلام- (متفق عليه).

ومن رواية زيد بن أسلم ﷺ، عن خوات بن جبير الأنصاري، أن خوات كان جالسًا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: "يا أبا عبد الله، ما لك مع النسوة؟!". فقال: يفتلن ضفيرًا لجمل لي شرود. قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثم عاد فقال: "يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشَّرَّاد بعد؟!" قال: فسكتُّ واستحييتُ. وكنتُ بعد ذلك أَتفَرَّرُ منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمتُ المدينة، فرآني في المسجد يومًا أصلي، فجلس إليّ فطوَّلتُ، فقال: "لا تُطَوِّل، فإني أنتظرك".. فلما سلَّمتُ قال: "يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشِّراك بعد؟!". فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت. فقال: "الله أكبر، ألله أكبر، اللهم اهد أبا عبد الله". قال -الراوي- فحسن إسلامه وهداه الله" (رواه الطبراني).

وروي أن نعيمان الأنصاري ﷺ كان رجلاً مزَّاحًا، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طُرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها إلى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك، وأهديته لك. فإذا جاء صاحبها يتقاضاه الثمن، جاء له إلى النبي، وقال: يا رسول الله، أعطه ثمن متاعه. فيقول له الرسول ﷺ: "ألم تهده لنا؟!". فيقول: يا رسول الله، إنه لم يكن عندي ثمنه، وأحببت أن تأكل منه. فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه" (ذكره الزبير بن بكار وابن عبد البر). وعن أبي هريرة ﷺ أن الأقرع بن حابس ﷺ أبصر رسول الله ﷺ يلاعب ويداعب الحسن بن علي رضي الله عنهما فيريه لسانه ويقبله، فكأنما استغرب الأقرع بن حابس ذلك من رسول الله فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحدًا منهن، فقال ﷺ: "من لا يرحم لا يُرحم" (رواه مسلم).

تلك نماذج وإشارات من سيرة المصطفى ﷺ وصفاته وشمائله، ومن سنته القولية والفعلية مع أهله، ومع صحابته -من الرجال والنساء- شاهدة على البعد الأصيل في المنهاج النبوي، والذي يجهله أو يتجاهله الكثيرون، وذلك عندما يحسبون الإسلام خشونة وتجهمًا، وعندما يريدون من النموذج الإسلامي ومن رجالات العلم الديني أن يكونوا نماذج للصرامة والتخويف، غافلين -أو متغافلين - عن الصورة القرآنية لنموذج القدوة والأسوة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩)، بل وحتى مع الأعداء، أمر الله ﷻ صاحب الخلق العظيم برفق التدافع مع هؤلاء الأعداء -ناهيًا عن عنف الصراع- لأن هذا المنهاج هو السبيل لتأليف القلوب وإحداث التحولات في هذه القلوب ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾(المؤمنون:٩٦)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً

مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٣-٣٤).

لقد كان ﷺ نموذجًا للإنسان الكامل، العابد المتبتل، والفارس المقاتل، والرحيم الرفيق، والغاضب لحرمات الله وحدود الله، والباشّ المداعب والمفاكه لأهله وأصحابه بالمُلح والطرائف والنكات، وصولاً إلى مفاتيح القلوب، وفقه النفوس والعقول، لتحقيق سعادة الإنسان في هذه الحياة وفيما وراء هذه الحياة.

ففي البشاشة والدعابة والمزاح والملح والطرائف -إذا استقامت وأعانت على تهذيب القلوب وتجديد الملكات وتأليف النفوس- رحمة يكتبها الرحمن في حسنات الرُّحماء.

المصادر:

(١) إسلامية المعرفة.. ماذا تعني؟ للدكتور محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م.

(٢) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، دمشق، ١٩٨٢م.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم، بيروت، ١٩٨٣م.

(٤) المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، للدكتور محمد عمارة ، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م.

(٥) معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٦) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م.

(٧) الإسلام والفنون الجميلة، للدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩١م.

(٨) الغناء والموسيقى حلال أم حرام، للدكتور محمد عمارة، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٩م.

(٩) لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

(١٠) أساس البلاغة، لمحمود الزمخشري.

(١١) قاموس المنجد، للويس معلوف، بيروت، ١٩٨٦م.

(١٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، طبعة مصورة، دار الشعب القاهرة. ولقد خرج العراقي ما أورده الغزالي من أحاديث في هذا الجانب -جانب الدعابة والملح والطرائف والنكات- من سنة وسيرة رسول الله ﷺ، وكتابه "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" مطبوع بهامش هذه الطبعة من الإحياء.

(١٣) الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء، مصر، ١٩٩٩م.

ماذا تعني بشرية الرسول؟

- حكمة توكيد القرآن على بشرية الرسول ﷺ
- طبيعة المعجزة القرآنية
- طور الرشد والرسالة الخاتمة

إن "بشرية الرسول" التي تؤكدها "معجزته–القرآن" ليست مجرد "تحصيل حاصل"، وإنما هي "ثورة" على التصورات الجاهلية للأمم السابقة عن "طبيعة الرسل" و"طبيعة المعجزات".

ماذا تعني بشرية الرسول؟

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٣).
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠)

حكمة توكيد القرآن على بشرية الرسول ﷺ

عندما اصطفى الله ﷻ محمد بن عبد الله ﷺ نبيًّا ورسولاً، وعندما صدع محمد ﷺ بأمر ربه، فدعا الناسَ إلى التوحيد وإلى الإيمان به نبيًّا ورسولاً، لم تكن هناك شبهة على "بشرية" محمد بن عبد الله ﷺ.

فهو قد نشأ يتيمًا في الفرع الهاشمي من قبيلة قريش بمكة، وهو قد شب الشباب الطيب المألوف من البشر المستقيمين، ثم هو قد رعى الغنم حينًا من الدهر ومارس التجارة حينًا آخر كما كان يصنع أقرانه من البشر العاديين، فليس في حياته هذه ما كان يثير أية شبهة حول "بشريته" أو يلقي عليها الشكوك أو الظلال.

ومع كل هذا فلقد وجدنا القرآن الكريم تجتهد آياته البينات لتؤكد على "بشرية" محمد ﷺ ولتَنفيَ أن يكون إلا "بشرًا رسولاً"، وبشرًا يوحَى إليه من السماء بالنبأ العظيم. فلِمَ كان هذا التأكيد والإلحاح على قضية لم

تكن محل خلاف ولا شبهة ولا جدال؟

لإدراك السر الذي يجيب على هذا التساؤل لا بد من النظر إلى رسالة محمد بن عبد الله ﷺ في سياق ما تقدمها من رسالات نهض بها الرسل الذين سبقوه على درب اتصال السماء بالبشر لهدايتهم إلى الصراط المستقيم؛ وأيضًا في ضوء كون الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة لطور النبوة والرسالة، بما يعنيه ذلك من بلوغ الإنسانية مرحلة "الرشد" التي تأهلت بها، لأنْ تُوكَل إلى "عقلها الراشد" تهتدي به -كلما انحرفت أو ضلت- إلى جادة الرسالة الخاتمة، دونما حاجة إلى رسول جديد.

طبيعة المعجزة القرآنية

ولقد كان هذا الطور الجديد الذي ارتقت إليه الإنسانية، طورُ "الرشد"، هو الذي حدّد الطابع الذي تميزت به "معجزة محمد ﷺ" التي تحدى بها قومَه، فجاءت لذلك:

• معجزة عقلية -رغم أنها "نقل" و "وَحي"- فهي لا تدهش العقل ولا تذهله، وإنما هي تنضجه وترشده، وتجعله مناط التكليف، وتتخذه حكَمًا وحاكمًا في فقه مراميها واكتناه أسرار إعجازها، واستخراج البراهين والأحكام مما ضمّت من السور والآيات.

• وهي -لهذا السبب- خالدة خلود الرسالة الخاتمة، لأن تأثيرها دائم الفعل والبرهنة. فهي ليست سفينة نوح عليه السلام، أو ناقة صالح عليه السلام، أو عصا موسى عليه السلام، أو إبراء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص... إلى آخر المعجزات التي "أدهشت العقل"، والتي وقف "إدهاشها" هذا عند حدود "الشهود"!

• ولأنها كانت التعبير عن بلوغ الإنسانية طور "رشدها"، وعن اتساق

"طبيعة إعجازها" مع هذا الطور الجديد، وجدناها تولي اهتمامها بكثير من القضايا التي تدعم من عوامل "رشد الإنسانية"، والتي تُزيل بقايا الشبهات والخرافات والمعتقدات الباقية من المراحل السابقة، عندما كانت الانسانية "خِرافًا ضالّة" تحتاج إلى "الوصاية الدائمة" من قِبل الرسل والأنبياء، ولا تؤمن إلا إذا "اندهش عقلُها". وهي مراحل كانت "عقول" الأكثرية فيها تأبى أن تصدق اتصال السماء بالأرض عن طريق "بشر"، فكانت تنزع إلى "رسل-ملائكة" نزوعَها إلى المعجزات "المدهشة للعقول".

فالذين كذّبوا نوحًا عليه السلام قد أنكروا واستنكروا "جدارة البشر أن يكون رسولاً": ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾(المؤمنون: ٢٣-٢٤). وكذلك صنع قوم "عاد" مع رسولهم هود عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾(المؤمنون:٣٣-٣٤). أما "ثمود" الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، فإنهم مع إنكارهم "جدارة البشر بالرسالة"، قد طلبوا "الآية-المعجزة" التي تدهش العقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾(الشعراء:١٤١-١٤٢). لكنهم كذّبوه: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(الشعراء:١٥٣-١٥٤).

فلما جاءتهم "الآية-المعجزة" "المدهشة للعقل" (وهي الناقة) استمروا على تكذيبهم وكفرهم، استنكارًا منهم أن يكون بشرًا رسولاً: ﴿فَقَالُوا

أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾(القمر:٢٤).

وعلى هذا الدرب، دربِ استنكار "جدارة البشر بالرسالة"، سار "أصحاب الأيكة/أهل مَديَن" عندما بعث الله إليهم "شعيبًا" عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٧٨). لكنهم كذبوه مستنكرين جدارته كبشر بالرسالة: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(الشعراء:١٨٥-١٨٦). ثم طلبوا منه كما طلبت "عاد" من "صالح" "الآية-المعجزة" التي "تدهش العقل وتذهله": ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(الشعراء:١٨٧).

ولقد تحدث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عن حال بني إسرائيل عندما أرسله الله إليهم، فقال عنهم: إنهم خِراف ضالّة. ولقد جاءهم عيسى عليه السلام بالمعجزات التي "تُدهش العقول" من مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص... فلم يؤمنوا به، بل إن الحواريين الذين آمنوا به قد طلبوا هم الآخرين من عيسى "الآية-المعجزة" التي "تدهش العقول": ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:١١٢-١١٣).

ولذلك فعَلَى الرغم من أن دعوة عيسى عليه السلام كانت: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾(المائدة:١١٧)، إلا أن قومًا قد ضلّوا فيه، فاستعظموا أن تظهر هذه "الآيات-المعجزات" التي "تدهش العقل" على يد بشر، فاتخذوه وأمه إلهَين من دون الله.

تلك كانت مسيرة الإنسانية مع رسالات السماء... فتعبيرًا عن قصور

هذه الإنسانية في "الرشد العقلاني"، كان استنكار الأكثرية "جدارة البشر" بالنبوة والرسالة والنزوع إلى أن تكون "معجزة" الرسول مما "يدهش العقل" ولا يحتكم إليه.

ولهذا رأينا القرآن الكريم -وهو المعجزة العقلية الخالدة للرسالة الخاتمة- يلحّ مع بقايا هذه الفكرية الجاهلية على بشرية محمد بن عبد الله ﷺ، ليعلن ويؤكد:

- جدارة البشر بالاصطفاء الإلهي نبيًّا ورسولاً،
- واستحالة أن يكون النبي والرسول إلا بشرًا يوحَى إليه،
- وانتهاء الطور الساذج من المسيرة التطورية للإنسان، والذي كانت تناسبه "الآيات-المعجزات" التي "تدهش العقل". فلقد أخلى هذا الطور المكانَ لطور بلغت فيه الإنسانية "رشدها". وإذا كان الإسلام هو الرسالة الخاتمة، وبها ارتفعت الوصاية عن الإنسان، فلا بد وأن يلعب "العقل" دَورًا قائدًا في "رشد" هذا الإنسان وفي "إرشاده"؛ ومن ثم فإن "طبيعة الإعجاز" في معجزة سيدنا محمد ﷺ لا بد وأن تختلف عن طبيعتها في معجزات الرسل السابقين، إنها لن "تدهش العقل"، بل ستتخذه حكَمًا وحاكمًا.

طور الرشد والرسالة الخاتمة

نعم، لقد وقف هذا السبب خلف إلحاح القرآن الكريم على "بشرية" محمد بن عبد الله ﷺ رغم أن هذه "البشرية" لم تكن موضع خلاف ولا موطن شبهات.

فمن العرب من ردد مقولة الأمم السابقة: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾(الأنبياء:٣)، بل وطلبوا ما طلبته تلك الأمم:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾(الأنبياء:٥). وأمام هذا "المنطق الجاهلي" الذي وقف بأصحابه عند "جاهلية الإنسانية" توالت آيات القرآن تكشف زيف هذا "المنطق"؛ فالتكذيب والعناد والجحود هو سبب الكفر، وليس الافتقار إلى "الآية-المعجزة" "المدهشة للعقل"، وذلك بدليل أن مجيء معجزات الرسل السابقين على هذا النحو لم تحول قومهم من الكفر إلى الإيمان: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء:٦). كما أن الرسل كانوا دائمًا، بشرًا يأتيهم وحي السماء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾(الأنبياء:٧-٨)، وبلوغ الإنسانية "طور الرشد" قد آذن بختام "طور النبوة والرسالة"، الأمر الذي أفسح "للعقل الإنساني" مكانا عاليًا في "ترشيد" الإنسان و"هدايته". ولذلك كله اختلفت "طبيعة الإعجاز" في معجزة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ۞ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾(الإسراء:٨٨-٩٣)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٥).

ولقد كان القرآن الكريم، بهذا المنطق، يقطع الطريق على كل المحاولات التي يمكن أن تظهر من ضعاف العقول، وضعاف الإيمان "بالعقل"، لتشكك في "بشرية" الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠). فهذا التأكيد على "بشرية" الرسول، وثيق الصلة بالتأكيد على ضرورة أن تبقى عقيدة "التوحيد" في التصور الإسلامي محتفظة بنقائها الشديد.

وفي هذا الضوء وجب ويجب على العقل المسلم أن ينظر إلى كل القصص والأخبار التي نَسبت وتَنسب إلى الرسول ﷺ، الخوارق المادية المدهشة للعقول، والتي هي من جنس معجزات الرسل الذين سبقت رسالاتهم رسالة الإسلام، عندما لم تكن البشرية قد بلغت سن الرشد الذي آذنت به رسالة الإسلام.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول، محذِّرًا أمّته من استعارة سذاجة الأمم التي سبقت، والسير على نهجها في الانحراف عن "الرقي والبساطة" اللتين تميزت بهما عقائد الإسلام: "لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه"؟! (رواه البخاري ومسلم).

إن "بشرية الرسول" التي تؤكدها "معجزته-القرآن" ليست مجرد "تحصيل حاصل"، وإنما هي "ثورة" على التصورات الجاهلية للأمم السابقة، عن "طبيعة الرسل" و "طبيعة المعجزات". كانت كذلك عندما تحدث عنها القرآن الكريم، وهي لا تزال كذلك، "ثورة" على "التصورات" التي طرأت على أفكار ومواريث بعض التيارات الإسلامية التي استنامت للقصص الخرافي ولم تتخذ من العقلانية الإسلامية موقفًا ودّيًّا.

النموذج الإسلامي لتحرير المرأة

- النموذج الوسطي في تحرير المرأة
- ريادات نسائية في فجر الإسلام
- نسبة أعلام النساء في حضارة الإسلام
- رسالة الإسلام رسالة إحيائية

النموذج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررهن الإسلامُ منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلاً.

النموذج الإسلامي لتحرير المرأة

في قضية المرأة وتحريرها لن يختلف أغلب العقلاء على أن المرأة قد حُمّلت تاريخيًّا وحتى عصرنا الراهن وفي كل الحضارات من المظالم والقيود أكثر مما حُمّل الرجال. ومن ثم فإن أغلب العقلاء لن يختلفوا على أن للمرأة "قضية"، وأن تحريرها -وإن ارتبط بتحرير الرجل- إلا أنه يحتاج إلى كثير من التميّز وكثير من الاختصاص وكثير من الاهتمام. لكن الأمر الذي يثير الكثير من الاختلاف -بل والخلاف- على النطاق العالمي، هو "النموذج الأمثل" الذي يحقق التحرير الحقيقي للنساء.

فهناك النموذج الغربي المتطرّف، نموذج الحركات الأنثوية الغربية التي تريد تَمرْكز الأنثى حول ذاتها في عالم خال من الرجال، تثور فيه الأنثى ضد الرجل وضد الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، وضد كل القيم والديانات، وهو نموذج بلغ في تطرفه وشذوذه حد الجنون. وهناك نموذج الجمود والتقليد الذي حمل ويحمل التقاليد الراكدة على الدين، فيُثْبتها ويكرسها ويقدسها حتى لكأن تحرير المرأة في هذا النموذج هو تحريرها من كل دعوات ودعاوى التحرير.

النموذج الوسطي في تحرير المرأة

وهناك النموذج الوسطي المتوازن المعبر عن حقيقة التحرير الإسلامي للمرأة. وهو الذي ينطلق من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم في تحرير المرأة وإنصافها والمساواة بين النساء والرجال الذين سوّى الله ﷻ بينهم عندما خلقهم جميعًا من نفس واحدة، وساوى بينهم جميعًا في حمل أمانة استعمار وعمران هذه الأرض عندما استخلفهم جميعًا في حمل هذه الأمانة. كما ساوى بينهم في الكرامة عندما كرّم كل بني آدم، وفي الأهلية والتكاليف والحساب والجزاء.. مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة لتتم نعمة السعادة الإنسانية بشوق كل طرف إلى الطرف الآخر المتميز عنه -ولو كان ندًّا مماثلاً لما كان "آخر" ولما كان مرغوبًا تهفو إليه القلوب- ولتكون هذه المساواة في الخلق وحمل الأمانة والكرامة والأهلية والتكاليف والحساب والجزاء والاشتراك متضامنين في أداء فرائض العمل الاجتماعي العام... لتكون هذه المساواة هي مساواة تكامل الشقين المتمايزين، لا مساواة الندّين المتماثلين والمتنافرين.

وينطلق هذا النموذج الوسطي من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم الذي جعل الرجل بعضًا من المرأة والمرأة بعضًا من الرجل ﴿لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾(آل عمران:١٩٥). فكل طرف هو لباس للطرف الثاني ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(البقرة:١٨٧). وقد أفضى بعضهم إلى بعض ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء:٢١). وقامت روابط هذا الميثاق الغليظ -ميثاق الفطرة- الجامع لهم جميعًا على بنود عقد وعهد المودة والرحمة والسكن

والسكينة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(الروم:٢١).

كما ينطلق هذا النموذج الوسطي -في تحرير المرأة وإنصافها- مع بقائها أنثى، تسعد عندما تكون سوية وتفخر وتباهي بأنوثتها، وتنفر وتهرب وتخجل من "الاسترجال"؛ كما يسعد الرجل السوي ويفخر ويباهي برجولته، وينفر من "التخنث" و"الأنوثة"... ينطلق أيضًا من التطبيقات النبوية لنصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم. تلك التطبيقات التي حررت المرأة المسلمة، وأنقذتها من "الوأْد" المادي والمعنوي، وجعلتها طاقة فاعلة في بناء الأسرة والدولة والأمة والحضارة، ومشارِكة في سائر ميادين إقامة الدين والدنيا منذ اللحظات الأولى لإشراق شمس الإسلام.

كما ينطلق هذا النموذج الوسطي أيضًا من الاجتهاد الإسلامي الحديث والمعاصر الذي أولى المرأة ما تستحق وما يجب لها من العناية كطرَف أصيل في المشروع النهضوي المنشود الذي استهدفه تيّار الإحياء والاجتهاد والتجديد، مستندًا إلى القرآن الكريم وإلى تطبيقات التحرير الإسلامي للمرأة، في مواجهة تصورات ونماذج الغلو الإسلامي والغلو العلماني جميعًا.

والنموذج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررهن الإسلامُ منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلاً.

ريادات نسائية في فجر الإسلام

• فخديجة بنت خويلد رضي الله عنها نموذج من نماذج الثمرات

الطيبة لهذا التحرير الإسلامي للمرأة.. به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإسلامية الجديدة والوليدة.. وبه كانت الداعمة -بالعقل والحكمة والمال وأيضًا بالعواطف المعطاءة- لرسول الإسلام، ودعوته وأمته.. حتى كان عام وفاتها "عام الحزن" والحداد للجماعة المؤمنة كلها.

• وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت نموذجًا من نماذج ثمرات هذا التحرير.. تحمل أمانة سر خطة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة؛ وهي من أخطر التحولات في تاريخ الدعوة والدولة والأمة؛ وتشارك في تنفيذ هذا الحدث الأعظم؛ وتشد أزر زوجها البطل الزبير بن العوام فتهيئ له بيته؛ وتزرع له حقله؛ وترعى فرس جهاده وقتاله؛ وتقاتل معه في بعض الغزوات؛ وتربي ولده عبد الله بن الزبير على البطولة والفداء والاستشهاد؛ وتعارض وتجابه الطغاة، من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي.. ومع كل ذلك تظل أسماء هذه هي الأنثى التي تتزيا بالحشمة الإسلامية والشرقية، فلا تلبس ما يكشف أو يشف، وتحافظ على مشاعر الغيرة المفرطة عند زوجها.

• والشّفاء بنت عبد الله القرشية العدوية رضي الله عنها كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإسلامي لتحرير النساء. سبقت إلى الإسلام؛ وبايعت على الدخول فيه وفي أمته ودولته؛ وتميزت بالعقل والرأي والحكمة؛ واشتغلت بتعليم القراءة والكتابة حتى كانت معلمة لحفصة أم المؤمنين؛ وروت أحاديث رسول الله ﷺ.. وكانت تحاوره، وأحيانًا تلومه فيعتذر إليها ﷺ؛ وبلغت -في المشاركة في السلطة والدولة- أن ولاها عمر بن الخطاب "ولاية الحسبة" أي "وزارة" التجارات والأسواق، وأوزانها ومعاملاتها.. تراقب وتحاسب، وتفصل بين التجّار وأهل السوق،

من الرجال والنساء.

• وأم هانئ فاختة بنت أبي طالب رضي الله عنها كانت من ثمرات هذا النموذج في تحرير النساء.. أسلمت عام الفتح (٨هـ)؛ ومع أن زوجها قد فرّ بشركه إلى نجران يوم الفتح، فلقد أجارت -أي أعطت الأمان- لرجلين من قومه كانا مطلوبين للقصاص الإسلامي؛ ووقفت -لذلك- في وجه أخيها علي بن أبي طالب الذي هم بتنفيذ القصاص فيهما فصارعته حماية لمن أجارت حتى لم يستطع منها فكاكًا؛ واستجاب رسول الله ﷺ لعهدها ولإجارتها قائلاً: "قد أجرنا من أجرتِ، وأمّنّا من أَمّنتِ يا أم هانئ.. لكن لا تُغضبي عليًّا، فإن الله يغضب لغضبه..!" فأطلقت أخاها فداعبه رسول الله ﷺ قائلاً: "يا علي غلبتك امرأة!..".

ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامي بأم هانئ الذروة أن خطبها رسول الله ﷺ لنفسه زوجًا وأما للمؤمنين بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك الذي فرّ بشركه إلى نجران، فاعتذرت عن خطبة الرسول -بأدب جم وحكمة بالغة- وقالت: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من سمعي وبصري، وحقُّ الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلتُ على زوجي أن أُضيّع بعض شأني وولدي، وإن أقبلتُ على ولدي أن أضيع حق الزوج. فقبل المصطفى ﷺ اعتذارها واحترم رغبتها في التفرغ لأولادها.. صنع ذلك وهو القائد المنتصر في لحظات الفتح الأكبر والانتصار الأعظم التي يستبيح في مثلها الفاتحون كل الحدود والسدود. غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنسانية، واحترم حرية أم هانئ، وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم.

• وعائشة بنت أبي بكر الصديق -زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين- رضي الله عنهما، ثمرة من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للنساء؛ كانت الزوجة

الرقيقة الحبيبة؛ وراوية الأحاديث وحافظة السنة؛ والفقيهة التي تراجع القرّاء والرواة والفقهاء والمجتهدين؛ والمشيرة في الشؤون العامة؛ والمتذوقة للفنون التي تعرضها فرقة فنية -من الأحباش- في مسجد النبوة؛ والممارسة لرياضة الجري مع زوجها ﷺ أثناء السفر إلى الغزو والجهاد.

• وحفصة بنت عمر بن الخطاب -زوج الرسول وأم المؤمنين- رضي الله عنهما، كانت من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للمرأة؛ سبقت إلى الإسلام بمكة وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة؛ وكانت شاعرة وخطيبة فصيحة وراوية للحديث. وائتمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبي بكر الصديق فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان، فنُسخت منه المصاحف التي وُزّعت على الأمصار؛ وشاركت بالرأي في تدبير شورى الأمة بعد استشهاد أبيها الفاروق؛ ورثَتْه نثرًا وشعرًا وخطبت في الناس بمناقب أبي بكر وعمر؛ وتحدثت عن سنة الإسلام في الاختيار الشوري للخلفاء والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم.

• ونسيبة بنت كعب الأنصارية -أم عمارة- رضي الله عنها، كانت ثمرة ناضجة متألقة من ثمرات هذا التحرير شاركت في بيعة العقبة الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية الأولى، فمارست في ظلال الإسلام وتحريره للمرأة قمة الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرنًا؛ وشاركت في بيعة الرضوان -تحت الشجرة- عام الحديبية (٦هـ) "على الحرب والقتال" عندما شاع أن قريشًا قتلت مندوب المسلمين إليهم، عثمان بن عفان. وكانت أم عمارة ممن أوفى بما عاهد عليه الله.. ففي يوم أحد كانت ضمن أقل من عشرة هم الذين صمدوا لجيش الشرك فحموا رسول الله ﷺ من القتل.. ويومئذ رآها الرسول وقد كسرت سنه وسالت دماؤه، وهي

مشمرة قد ربطت ثوبها على وسطها تقاتل دونه وتتصدى لابن قميئة الذي اندفع نحو الرسول ﷺ قائلاً: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا...! رآها الرسول وهي تتلقى في كتفها الطعنة التي أراد ابن قميئة توجيهها إلى الرسول.. وكانت أمها معها تعصب لها جراحها. وكان معها كذلك في هذه الملحمة ابنها الذي نزف فعصبت نزيفه ثم استنهضته للقتال. وعندما جُرحت جرحها الغائر في كتفها نادى الرسول على ابنها: "أمك، أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت". ثم نادى على أحد الفارين كي يعطيها ترسه لتترس به.. وقال لها في إعجاب: "من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟!.. لمقام نسيبة بنت كعب يوم أحد خير من فلان وفلان.. ما ألتفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني. "أما هي، التي غادرت أرض المعركة يومئذ وفي جسدها ثلاثة عشر جرحًا فلقد قالت لرسول الله ﷺ: ادع الله أن نرافقك في الجنة... فقال ﷺ: "اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة"، فقالت: ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا.

• وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها كانت هي الأخرى واحدة من الكواكب اللاتي حررهن الإسلام فأضأن في سماء تحرير المرأة المسلمة. شاركت مع أم عمارة في عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ببيعة العقبة؛ وشهدت يوم الفتح الأعظم (فتح مكة)، وقاتلت يوم اليرموك في فتوحات الشام، وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها؛ وكانت من ذوات الرأي والعقل والحكمة والدين، خطيبة فصيحة تهز أعواد المنابر إذا خطبت، وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتتزعم المطالبة بما لهن من حقوق، حتى لقد سميت في كتب السنة والسيرة بـ"وافدة النساء"، أي رسولة وزعيمة النساء في المطالبة بحقوقهن لأنها

ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد متحدثة باسم نساء المسلمين، فقالت: "أنا وافدة من خلفي من النساء يقلن بقولي وهنّ على مثل رأيي. إن الله قد بعثك للرجال والنساء. ولقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، تعلمنا فيه". فوعدهن رسول الله ﷺ يومًا، لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن.. وروت عن رسول الله ﷺ أكثر من ثمانين حديثًا.

تلك مجرد إشارات لأمثلة من النماذج التي جسّدت نوعية التحرير الذي أنجزه الإسلام للمرأة منذ فجر البعثة النبوية وإشراق شمس حضارة الإسلام. وإذا كانت هذه النماذج شاهدةً شهادةَ صدقٍ على نوعية التحرير ونموذجه، فإن الآفاق الواسعة التي بلغتها موجات هذا التحرير تشهد على عموم النعمة التي تمثلت فيه.

نسبة أعلام النساء في حضارة الإسلام

يوم انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان تعداد الأمة التي دخلت الدين الجديد وانخرطت في رعية الدولة الوليدة (١٢٤,٠٠٠) من المسلمين والمسلمات. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التي تربّت في مدرسة النبوة وتميز عطاؤها في مختلف ميادين العطاء، رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة، فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء. أي إن التحرير الإسلامي للمرأة قد دفع إلى مراكز الريادة والقيادة أكثر من واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة إبان التحرير الإسلامي في أقل من ربع قرن من الزمان، وهي أعلى نسبة للريادات النسائية في أي ثورة من ثورات التحرير أو نهضة من النهضات.

وإذا كانت رياح الجاهلية قد أعادت بعض التقاليد والعادات التي سبقت وسادت مجتمعات ما قبل الإسلام، فإن هذه التقاليد الراكدة لم تستطع غلبة إنجازات التحرير الإسلامي للمرأة رغم مغالبتها لهذه الإنجازات، فظلّت روح هذا التحرير وثمراته ملحوظة حتى في عصور التراجع الحضاري الذي أصاب عالم الإسلام. فظلت حياتنا الاجتماعية الإسلامية زاخرة بنماذج النساء المُحدّثات والفقيهات والشاعرات والأديبات اللائي بلغ شأوهن في العلم الحد الذي تتلمذ عليهن وأخذ "الإجازة" العلمية منهن عدد من كبار أئمة الفقهاء والحفاظ والمحدّثين والمجددين.

وعندما رصد عالِم التاريخ والتراجم والطبقات "عمر رضا كحّالة" أعلامَ النساء اللائي تفوّقن وبرزن وتقدمن صفوف الصفوة في تاريخنا الحضاري، إذا به يترجم لثلاثة آلاف من أعلام النساء في المحيط العربي وحده، وهو محيط لا يمثّل إلا خُمس أمة الإسلام.

صحيح أن نسبة الصفوة وأعلام النساء في تاريخنا الحضاري كان يجب أن تكون أضعاف أضعاف هذا العدد، وذلك قياسًا على حجم وتعداد صفوة وأعلام النساء في عهد النبوّة. لكن يظل هذا التعداد شهادة صدق للنموذج الإسلامي في تحرير النساء، ووِسامًا على صدر حضارة الإسلام تباهي به كلّ الحضارات. فلقد استعصى هذا النموذج على الهزيمة أمام العادات والتقاليد الراكدة التي عادت فسادت في حقبة تراجعه الحضاري، فظل فاعلاً على امتداد تاريخ الإسلام، ثم عاد لتتألق معالمه المتميزة في اجتهادات مدرسة الإحياء الإسلامي الحديث والمعاصر.

رسالة الإسلام رسالة إحيائية

إن الحضارة الإسلامية التي جسّدت الإحياء الإسلامي في مختلف ميادين الإبداع الحضاري، لأن الإسلام هو الإحياء في مختلف هذه الميادين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤).. إن هذه الحضارة الإسلامية قد أفرزت أعلام العلماء -في مختلف ميادين العلم بما في ذلك الفلك والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والرياضيات والطب والصيدلة... إلخ- قبل أن يمر قرن من الزمان على إشراق شمس الإسلام، ناهيك عن العلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية والآداب والفنون. بينما الحضارة الغربية في أوروبا قد ظلّت ستة عشر قرنًا قبل أن تشهد عالِمًا واحدًا في الفلك.

وإذا كان الإيمان الإسلامي، وفقه الدعوة الإسلامية، وشورى هذه الدعوة قد بدأت جميعها بامرأة وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.. وإذا كانت علوم الإسلام قد عرفت الريادات من النساء منذ فجر الدعوة وعلى امتداد تاريخها الطويل.. فإن الحضارة الغربية لم تعرف عالمة في النصرانية ولاهوتها. أما هذا الذي سمّوه في النهضة الأوروبية تحرير المرأة فلقد جاء هو الآخر -كتحرير العلماء- على أنقاض سلطان الدين والكنيسة واللاهوت. ولذلك جاء رد فعل لاديني يحرر المرأة من الدين بدلاً من أن يحررها بالدين.

لذلك كانت رسالة العقل المسلم هي حماية المجتمع المسلم من الوقوع في مستنقع التقليد، تقليد الآخر الغربي. وسواء أكان التقليد للنموذج الغربي المغالي في مناقضة الفطرة والقيم، أم كان تقليدًا للعادات

والتقاليد الاجتماعية البائدة، فإنه مرذول. وفي النموذج الإسلامي الوسطي لتحرير المرأة بالإسلام النموذج المثالي الذي يحرر المرأة مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، تلك التي فطر الله الناس عليها، من الذكور والإناث جميعًا. فهو تحرير تَسعد به المرأة بدلاً من أن تشقى بالنموذج الغربي للتحرير، أو تظل حبيسة العادات والتقاليد الراكدة التي يحملها البعض زورًا وبهتانًا على حقيقة الإسلام.

حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب

- الحرب الدينية المقدسة
- حقيقة الجهاد الإسلامي
- حقيقة القتال في الإسلام
- حقيقة الإرهاب

إن الجهاد الإسلامي الذي هو فريضة إسلامية أعم من القتال الذي شرعه الإسلام. فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً، إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد وليس كل الجهاد.

حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب

هناك خلط كبير وشديد بين مضامين هذه المصطلحات الثلاثة: الجهاد... والقتال... والإرهاب.

وهذا الخلط هو أشد ما يكون في هذه الحرب السياسية والفكرية والدينية والإعلامية الكبرى التي تشنها دوائر غربية متنفذة ضد الإسلام وأمته وحضارته وعالمه، ليس فقط منذ "قارعة" ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م التي وقعت بأمريكا، وإنما قبل هذه القارعة بعقود وربما بقرون. لكن هذه القارعة قد تصاعدت بهذه الحملة، ومن ثم بهذا الخلط بين مفاهيم هذه المصطلحات تصاعدًا غير مسبوق في تاريخ علاقات الغرب بالشرق، والغربيين بالشرقيين.

ولأن النظر إلى "الآخر" من خلال "الذات" هو عيب شائع في الدراسات المقارنة بين الديانات والثقافات والحضارات، لأنه يؤدي إلى صب "الآخر" في قوالب "الذات"، وتجاهل -ومن ثم- إلغاء الفروق بين الديانات والثقافات والحضارات، وذلك بدلاً من التمييز بين "الأشباه والنظائر" التي تجمع النماذج الثقافية في موضوع الدراسة، وبين "الفروق" التي تمايز بينها.. كان هذا المنهاج الأحادي الجانب السبب في كثير من الخلط الذي يصيب مضامين العديد من المصطلحات.

صحيح أنه لا مشاحة في استخدام المصطلحات من قِبل أهل الحضارات المختلفة والديانات المتعددة والثقافات المتمايزة، لكن هناك مشاحة أكيدة في المضامين والمفاهيم والمحتويات التي تُفهم لدى كل فريق من ذات المصطلحات. فالمصطلحات بمثابة الأوعية يستخدمها ويتداولها الجميع، لكن محتويات هذه الأوعية (مضامين المصطلحات) تتفاوت وتتغاير وتتمايز بل وقد تتناقض لدى أصحاب الأنساق الفكرية المختلفة رغم وحدة المصطلحات. كذلك الحال مع مصطلحات الجهاد والقتال والإرهاب.

الحرب الدينية المقدسة

باستثناء قطاع محدود من العلماء الغربيين الذين درسوا الإسلام وحضارته وتاريخه وفق موضوعية الدراسات المقارنة، والذين تحررت ضمائرهم من قيود المقاصد "الإمبريالية" الغربية، فإن الكثيرين من الذين قاموا بدراسة الحضارة الإسلامية وتاريخ المسلمين -سواء بسوء فهم أو سوء نية- قد وقعوا في خطإ النظر إلى "الذات الإسلامية" من خلال منظار "المعايير" التي حكمت مسيرة الحضارة الغربية، والكهانة الكنسية للنصرانية الغربية، والتاريخ الحضاري الغربي، وما شهده من صراعات.

فإذا ذُكرت الخلافة الإسلامية -وهي دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية- قفز إلى مخيلتهم كهانة الدولة الكنسية الأوربية التي حكمت بالحق الإلهي والتفويض السماوي. وإذا ذُكر الحق في المواطنة، لم يتصوروه إلا قائمًا على أنقاض الدين وشريعته وفي ظلال العلمانية واللادينية. وإذا ذُكر الدين، لم يتصوروه إلا علاقة فردية بين الإنسان

وخالقه تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء، لا علاقة لها بهذا العالم، لأنها تدع ما لقيصر لقيصر، مكتفية بما لله لله.

وانطلاقًا من النظر إلى "الآخر الإسلامي" من خلال منظار "الذات الغربية" حسب هؤلاء الغربيون -ومعهم مثقفونا المتغربون- الجهاد الإسلامي "حربًا دينية مقدسة" ضد أصحاب الديانات الأخرى تكون معايير البراء والعداء والصراع فيها هي الاختلافات في المعتقدات.

وانطلاقًا من هذا النموذج "الحضاري والتاريخي"، ومن خلال هذا المنظار الغربي نظر كثير من المستشرقين الغربيين إلى الجهاد الذي تحدث عنه القرآن الكريم والذي جعلته السنة النبوية ذروة سنام الإسلام.

حقيقة الجهاد الإسلامي

إن الجهاد الإسلامي ليس حربًا دينية مقدسة، لأن الإسلام ينكر ويستنكر أي حرب دينية. فالإيمان الإسلامي تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، وهو سر بين المؤمن وبين خالقه لا يتأتى إلا بالفهم والعلم والإقناع والاقتناع، ولا يمكن أن يكون ثمرة لأي لون من ألوان الإكراه فضلاً عن أن يكون هذا الإكراه عنفًا قتاليا. ولذلك قرر القرآن الكريم القاعدة المحكمة والمحاكمة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦) والتي لا تعني فقط "النهي" عن الإكراه في الدين، وإنما تعني أيضًا "نفي" أن يكون هناك دين أو تدين عن طريق الإكراه. إذ الإكراه يثمر "نفاقًا" وهو أخطر من "الشرك" الصراح و "الكفر" البواح، ولا يمكن أن يثمر "إيمانًا" بحال من الأحوال. ولذلك شاعت في القرآن الكريم الآيات التي تقول للمخالفين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦)، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩) والتي

تحدد مهمة الرسالة في الاعتقاد: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ﴾(المائدة:٩٩)، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢١-٢٢).

وإذا كان الخلط بين الجهاد الإسلامي وبين الحرب الدينية المقدسة هو أثر من آثار سوء الفهم للإسلام، أو سوء النية في تصوير الإسلام، فإن هناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامي في القتال الذي تحدث عنه القرآن الكريم ومارسه المسلمون في عصر النبوة وعلى امتداد تاريخ الإسلام.

ذلك أن الجهاد الإسلامي الذي هو فريضة إسلامية أعم من القتال الذي شرعه الإسلام. فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً، إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد وليس كل الجهاد.

إن الجهاد في اصطلاح العربية كما جاء في "لسان العرب" لابن منظور هو: "استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل". فهو لا يقف عند "الفعل" فضلاً عن أن يكون هذا "الفعل" فقط هو "الفعل العنيف" (الحرب) دون سواه.

والجهاد في الاصطلاح القرآني: "هو بذل الوسع في المدافعة والمغالبة" في كل ميادين المدافعة والمغالبة، أي في كل ميادين الحياة، وليس فقط في ميادين القتال. وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن الكريم ورد مرادًا به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها. وسبيل الدعوة الإسلامية هو الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وليس بالقتال والإكراه والحرب الدينية المقدسة. فميادين الجهاد الإسلامي -الأكبر والأعظم والأغلب- هي عوالم الأفكار والحوار.

فبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في ميادين العلم والتعلم والتعليم هو جهاد؛ وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في عمران

الأرض نهوضًا بأمانة الاستخلاف الإلهي للإنسان هو جهاد؛ بل إن الرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد -الطبيعة- هو جهاد؛ وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولي الأرحام هو جهاد. كما أن الخشية لله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه هي قمة من قمم الجهاد الذي فرضه الإسلام؛ والكلمة الصادقة جهاد.

بل لقد جعلت السنة النبوية -وهي البيان النبوي للبلاغ القرآني- من أفعال القلوب -وليس فقط الأيدي والألسنة- ميدانا من ميادين الجهاد الإسلامي: "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جهادهم بقلبه فهو مؤمن" (رواه مسلم).

ومثل ذلك حراسة الوطن والمرابطة على ثغور دار الإسلام -كل الثغور- هي جهاد يكون أصحابها أول من يدخل الجنة من خلق الله.

كذلك جعلت السنة النبوية الحج إلى بيت الله الحرام -وفيه التجرد من الدنيا وقوّتها، بل وزينتها- والتعايش السلمي حتى مع الهوان، وكل أنواع الأحياء والنباتات... جعلت السنة النبوية هذا الحج ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامي.

تلك هي حقيقة الجهاد الإسلامي الذي هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة في أي ميدان من ميادين الجهاد على امتداد هذه الميادين واتساعها وتنوعها، وليس فقط هو القتال، فضلاً عن أن يكون الحرب الدينية المقدسة.

ولهذه الحقيقة كان الجهاد الإسلامي فريضة لازمة على كل مسلم ومسلمة، لأنه مستطاع لكل المكلفين وفق القدرات التي امتلكها ويمتلكها هؤلاء المكلفون، وفي أي ميدان يستطيع المكلف أن يبذل جهده فيه بسائر ميادين العبادات والمعاملات؛ بينما كان القتال الذي هو شعبة من

شعب الجهاد مشروطًا بشروط، وله ميادين محددة، ضبطها القرآن الكريم في الآيات التي تحدثت عن القتال.

تلك هي حقيقة الجهاد الذي فرضه الله وجعله ذروة سنام الإسلام، والذي جاهده المسلمون -ولا يزالون- على امتداد تاريخ الإسلام، والذي يكون جهادًا كبيرًا عندما يكون فقهًا ووعيًا وحوارًا بالحكمة والموعظة الحسنة انطلاقًا من القرآن الكريم: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢).

حقيقة القتال في الإسلام

وإذا كان الجهاد في الإسلام أعم من القتال، فإن القتال الذي هو الجهاد العنيف، والذي هو شعبة واحدة من الشعب السلمية التي لا تُحصى للجهاد، متميزة ثمرته -وهي القتل- عن الموت الطبيعي. فالموت: هو فوْتُ الحياة، بينما القتل: هو إزالة الروح وإزهاقها، وفوت الحياة بفعل فاعل من الخارج يتولى هذا الإزهاق.

وليس هناك شك -بل ولا غرابة- في أن نجد في الإسلام تشريعًا مضبوطًا يجوّز القتال أو يوجبه في بعض الحالات، ذلك أن الإسلام دين ودولة، وأمة ووطن، واجتماع ونظام، فالدين في الإسلام لا بد لإقامته من وطن يقام فيه، لأن هذا الدين الإسلامي ليس مجرد تكاليف فردية، يستطيع المكلف بها أن يقيمها بمعزل عن الناس، أو بإدارة الظهر للناس، وإنما فيه -إلى جانب التكاليف الفردية- تكاليف اجتماعية لا تؤدى إلا في أمة، وجماعة، ونظام، ومؤسسات، وسلطة، واجتماع؛ أي لا بد له من وطن ودولة. وهذه التكاليف الاجتماعية -والكفائية- هي آكد وأهم من التكاليف الفردية، لأن الإثم في التخلف عن التكليف الفردي يقع

على الفرد فقط، بينما إثم التخلف عن التكليف الجماعي والاجتماعي -الكفائي- يقع على الأمة جمعاء. بل إن أغلب التكاليف الفردية في الإسلام تُؤدّى وتقام في جماعة، وثوابها في الجماعة أضعاف أضعاف إقامتها خارج الجماعة.

ولهذه الحقيقة -أيضًا- رفع الإسلام قيمة الحفاظ على حرية الوطن واستقلاله وسيادته، وحق المواطن -بل واجبه- في أن يعيش حرًا في وطن حر... رفع هذه القيمة إلى مقام الحياة.

ولأن هذا هو مقام الوطن وضرورته لإقامة دين الإسلام، كان الجهاد القتالي واردًا، وأحيانًا واجبًا، للحفاظ على الوعاء -الوطن- الذي بدونه لا يُقام كامل الإسلام.

فلا بد لإقامة الإسلام من وطن، الأمر الذي يجعل القتال لحماية حرية هذا الوطن -التي هي حرية مواطنيه- واردًا في شريعة الإسلام. فالحفاظ على الدين هو ذروة سنام مقاصد الشريعة الإسلامية. والحفاظ على حرية الوطن الإسلامي هو الشرط لإقامة الدين والقيام بأمانة العمران التي هي المهمة العظمى من وراء استخلاف الله لجنس الإنسان ولذلك وقف الإسلام بالقتال -إذنًا وأمرًا وتحريضًا- فقط عند:

١- الحفاظ على الدين، وحرية الدعوة إليه، وتحرير ضمائر المؤمنين به من الفتنة والإكراه.

٢- الحفاظ على الوطن، وصيانة حريته وحرية أهله من العدوان.

فالقتال في الإسلام هو الاستثناء الذي لا يجوز اللجوء إليه إلا لمدافعة الذين يفتنون المسلمين في دينهم، أو يخرجونهم من ديارهم. ولقد كان منهاج الدعوة الإسلامية التجسيد لهذا المنهاج.

ففي البداية وبعد ما تعرض له المسلمون من أذى في عقيدتهم، وفتنة عن دينهم، واضطهاد تصاعد حتى اقتلعهم من وطنهم (مكة)، وجعلهم يهاجرون إلى يثربَ (المدينة)، بعد هجرة العديدين منهم إلى الحبشة؛ أذن الله -مجرد إذن- للمؤمنين في القتال ولقد كان الإخراج من الديار،[1] والفتنة في الدين، الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم في كل الآيات التي شرعت لهذا القتال.

وعندما تطور الحال من "الإذن" في القتال إلى "الأمر" به، جاء القرآن الكريم ليضع الإخراج من الديار سببًا لهذا الأمر. فهو قتال دفاعي ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، وفتنوهم في دينهم لتحرير الوطن الذي سلبه المشركون من المسلمين ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(البقرة:١٩١).

ذلك لأن منهاج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله وإلى دينه ليس القتال، وإنما هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

بل قد تميز الإسلام في هذا الميدان برفضه فلسفة "الصراع"، لأنه يؤدي إلى أن يصرع القوي الضعيف فيزيله وينهي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، التي هي سنة من سنن الله في سائر عوالم المخلوقات. رفض الإسلام فلسفة "الصراع"، وأحل محلها فلسفة "التدافع" الذي هو حراك يعدّل المواقف، ويعيد التوازن، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار

---

[1] ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠)

والتفاعل بين مختلف الفرقاء.

إن الإسلام لا يريد "الصراع" الذي ينهي "الآخر"، وإنما "التدافع" الذي هو حراك يحل التوازن محل الخلل الذي يصيب علاقات الفرقاء المتمايزين.

كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جبلّة جُبل عليها الإنسان وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه. وفي مواجهة هذه الفلسفات التي ذهبت إلى حد اعتبار الحرب طريقًا من طرق التقدم والتطور(!) يقرر الإسلام أن القتال هو الاستثناء المكروه وليس القاعدة. إنه ضرورة تُقدر بقدرها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦)، وليس هناك "مكتوب" و"مفروض" وصف في القرآن الكريم بأنه "كُرْهٌ" سوى القتال.

ولقد بينت السنة النبوية وأكدت هذه الفلسفة الإسلامية إزاء القتال. فقال رسول الله ﷺ: "لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله" (رواه الدارمي).

وحتى هذا القتال الذي كتب على المسلمين وهو كُره لهم والذي وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعي لحماية حرية العقيدة وحرية الدعوة من الفتنة -التي هي أكبر من القتل المادي- ولحماية حرية الوطن الذي بدونه لا يُقام الإسلام... حتى هذا القتال -الاستثناء والضرورة- قد وضع الإسلام ودولته له "دستورًا أخلاقيًا" تجاوز في سموه كل المواثيق الدولية التي تعارف عليها المجتمع الدولي نظريًّا! بعد أربعة عشر قرنًا من ظهور الإسلام، وتطبيق المسلمين لقواعد الدستور الأخلاقي لهذا القتال.

ولقد صاغ أبو بكر الصديق ﷺ وهو رأس الدولة قواعد هذا الدستور

الأخلاقي للقتال والحرب في وثيقة إسلامية عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان وهو يودعه أميرًا على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال في وثيقة الوصايا العشر: "إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبَّسوا أنفسهم لله (الرهبان) فدعهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له... وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأةً ولا صبيًّا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخرّبن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تفرقنه، ولا تغْلُل، ولا تجْبُن" (رواه الإمام مالك).

فمعيار الإسلام ودولته في السلم والسلام أو الحرب والقتال ليس "الإيمان" و"الكفر" ولا "الاتفاق" و"الاختلاف"، وإنما هو التعايش السلمي بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار. وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الممتحنة:٨-٩).

ولقد طبق المسلمون هذا المعيار في العلاقات مع المخالفين، فكان اليهود -بدولة المدينة المنورة- جزءًا من الرعية والأمة. ونص دستور هذه الدولة الإسلامية الأولى على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتنَاصر عليهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر

على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، فيهود أمة مع المؤمنين". وبالنسبة لعموم النصارى قررت المواثيق النبوية في هذه الدولة الإسلامية الأولى: "أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي حقيقة النظرة الإسلامية إلى القتال. إنه الاستثناء لا القاعدة، وهو الاستثناء المكروه ولا يجوز اللجوء إليه إلا دفاعًا عن حرية الاعتقاد والضمير وحرية الوطن الذي بدون حريته يستحيل إقامة الاعتقاد الديني على النحو الذي أراده الله في شريعة الإسلام. تلك هي حقيقة القتال في الإسلام وتلك هي مقاصده.

إنه مجرد شعبة من شعب الجهاد، وهو الاستثناء لا القاعدة، والضرورة التي تُقَدَّر بقدرها، وهو الفريضة المكروهة وليس الجِبِلة التي تقود إلى التقدم كما زعمت فلسفات وثقافات خارج نطاق الإسلام.

حقيقة الإرهاب

إن المفهوم الغربي لمصطلح "الإرهاب"، والذي يعني استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين ولإكراههم على قبول ما لا يريدون، وخصوصًا عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين، أي إرهاب الدولة الذي يبث الرعب في نفوس المحكومين... إن هذا المفهوم الغربي للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم المصطلح في لغتنا العربية وفي القرآن الكريم الذي هو كتاب العربية الأول وديوان

شريعة الإسلام. بل إن الإسلام يبرئ سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أي منها في الدعوة إلى شريعة أي دين من تلك الديانات. فمنهاج الدعوة إلى اليهودية في شريعة موسى عليه السلام هو "القول اللين"، وليس العنف أو الحرب والقتال والإرهاب: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى﴾(طه:٤٤).

ولأن موسى عليه السلام لم يقم دولة ولم يقد جيشًا ولم يخض حربًا ولا قتالاً، وإنما ولد ونشأ وبعث في مصر، فلقد ظلت شريعته الحقيقية بريئة من أي إكراه أو عنف أو إرهاب.

وكذلك الحال مع النصرانية التي جاء بها عيسى بن مريم عليه السلام. فهي شريعة الصوفية المسالمة والسلام الصوفي التي بلغت في السلام والمسالمة حدودًا ومثلاً ربما عَزَّتْ على التطبيق في نطاق هذا العالم. ولذلك قال المسيح عليه السلام إن مملكته ليست في هذا العالم. فبراءة النصرانية -ومنهجها في الدعوة- من العنف والإكراه والإرهاب الذي يروّع الآمنين براءة لا تحتاج إلى كثير حديث.

وكذلك الحال مع منهاج الدعوة الإسلامية في الدعوة إلى الله، فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهي في الدعوة إلى الإيمان الديني... منهاج الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، لأن هذا المنهاج هو الوحيد الذي يثمر إيمانًا وتصديقًا قلبيًا يبلغ مرتبة اليقين؛ بينما الإرهاب بمعنى ترويع الآمنين وإكراههم على ما لا يريدون هو سبيل النفاق الذي هو أشد سوء من الشرك الصراح والكفر البواح، وليس سبيل الإيمان بأي حال من الأحوال.

أمَّا أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة في القرآن الكريم -بسورة

الأنفال- إلى الإرهاب، فإن خطأهم القاتل -هذا إذا حسنت النوايا، وساء الفهم- هو في وقوفهم عند المصطلح مغفلين تميز مفهوم هذا المصطلح في القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربي الذي شاع ويشيع الآن في دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام. ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية التي ورد فيها هذه المصطلح -بسورة الأنفال- ثم جمعوا إلى آيات الأنفال كل الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح ومشتقاته بالقرآن الكريم، ثم فسروا هذه الآيات، وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربي وسياقه القرآني، لمَا تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب، بمعنى ترويع الآمنين بالعنف والعدوان والإكراه.

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين، بفتنتهم في دينهم، وإخراجهم من ديارهم؛ وتخص بالحديث قومًا من هؤلاء المشركين المقاتلين احترفوا الخيانة للعهود، وأخذ المسلمين على غرة رغم ما بينهم من عهود للسلم والأمان. فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف -أي يردع- هؤلاء الذين مردوا على الخيانة ونقض العهود والغدر والعدوان ما يردعهم عن هذه الخيانة.

يخاطب الله رسوله في هذه الآيات فيقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال:٦٠).

فمعنى الإرهاب هنا هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين كي لا يغدروا بالمسلمين المعاهدين. وهو تخويف يوجب إعداد القوة الرادعة وليس تخويف العدوان والعنف والإكراه، أي أنه التخويف الذي ينفي العنف والإكراه والقتال. فهو كالعقوبة الرادعة؛ إعلانها يمنع ويردع

عن الجريمة، ومن ثم يمنع تطبيقها. ولا علاقة لهذا الإرهاب بهذا المعنى بترويع الآمنين وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه الذي هو معنى مصطلح الإرهاب في الفكر الغربي.

إن امتلاك الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة في منتصف القرن العشرين للسلاح -الرادع- النووي والهيدروجيني، هو الذي أرهب وردع أمريكا وأخافها من العدوان الذري على السوفيت، فتحقق الأمن والأمان للعالم من هذه الكارثة النووية.

ويشهد على هذه الحقيقة المفاهيمية مع السياق الذي وردت به آيات سورة الأنفال معنى مصطلح الإرهاب في العربية لغة القرآن الكريم.

ونحن عندما نعود إلى "الراغب الأصفهاني" في كتاب "المفردات في غريب القرآن" نجد أن معنى الإرهاب في القرآن ولغته العربية هو على الضد من العنف الذي يروّع الآمنين ويرعبهم. فهو من "الرهبة" بمعنى المخافة مع "تحرّز واضطراب". وليس هناك عاقل يمكن أن يفسر المخافة والرهبة والخشية بالعنف الذي يروّع الآمنين ويرعبهم. وتشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التي وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح وتصريفاته اللغوية.

فالرهبان هم الذين يبالغون في الخوف من الله وفي خشيته، والرهبانية هي المبالغة في الخشية من الله، وليس في أي من مضامين هذه المصطلحات القرآنية -يرهبون، فارهبون، تُرهبون، استرهبوهم، الرهْب، الرهبة، الرهبان، الرهبانية- ما يشير من قريب أو بعيد للمعنى الغربي للإرهاب، بمعنى العنف الذي يروّع الأبرياء والآمنين ويرعبهم.

إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم وتحويلهم إلى لاجئين، هو

عنف وإرهاب وترويع للأبرياء والآمنين. وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق، لتضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافي والسياسي والديني والحضاري الذي مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ.

تلك هي حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب في مصطلح العربية والقرآن والإسلام.

المصادر:

(١) مجمع اللغة العربية، (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة، سنة (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م).

(٢) د. محمد حميد الله الحيدر آبادي، محقق (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة)، ص:١٦-٢١، طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦م.

(٣) مجمع اللغة العربية، (معجم العلوم الاجتماعية)، طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٥م.

مكتبة حراء

روح الحضارة الإسلامية

الإيمان هو الذي يحقق للإنسان الانتماء إلى هذا الوجود، ويقوده إلى رحاب المعية الإلهية وحضرتها القدسية، فيأنس بهذه المعية وينجو من غول الاغتراب الذي يفترس أمن الإنسان في المجتمعات المادية والوضعية واللادينية.

الوسطية هي السمة المميزة للإسلام، وهي السبب الذي جعل الإسلام دين الفطرة البشرية السوية، فكان لذلك سلم الارتقاء على درب المدنية، بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء.

وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضاري، وازدهارهم الثقافي.. فما سبب التخلف الذي أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو، على حاله الذي كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم في الحياة الإسلامية؟!

إن السبب هو غيبة "الروح" (روح الدين الإسلامي) عن الحضارة (الحضارة الإسلامية)، هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين.. هذه الروح التي جعلت الحضارة إسلامية، بل والتي فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام.

ISBN 978-975-315-483-3
9 789753 154833
www.daralnile.com